مجلة جامعة الإمـام
محمد بن سعود الإسلامية

العدد الخامس
المحـرم ١٤١٢

ابن خلدون ونشأة المدن
دراسة في علم الاجتماع الحضري

للدكتــور
عبدالرزاق بن حمود الزهراني
الأستاذ المشارك بقسم الاجتماع
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ابن خلدون ونشأة المدن

دراسة في علم الاجتماع الحضري

تقديم وتمهيد :

على الرغم من المحاولات العلمية المبذولة من قبل العديد من علماء اجتماع والجغرافيا لتفسير نشأة المدن، إلا إن الاستعراض العام لآراء هؤلاء العلماء يبين لنا أن تلك المحاولات لم تخرج في الغالب الأعم عن التفسير الذي قدمه ابن خلدون قبل حوالي ستة قرون للفكر الاجتماعي فيما يتعلق بنشأة المدينة. وفي هذه الدراسة سنحاول تقديم أفكار ابن خلدون عن المدينة من حيث تعريفها ونشأتها، ومن حيث العوامل التى تقود إلى تطورها ونموها أو تقلصها وانقباضها، ومن ثم سوف نتعرض لأهم الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للمدينة كما يراها ابن خلدون، محاولين من خلال ذلك التركيز على مدى تميز الفكر الخلدوني في هذه الأبعاد بمقارنته بأفكار بعض المتأخرين حول هذه القضايا .

وابن خلدون يُعتبر من أبرز علماء المسلمين في جميع العصور، فقد جمع إلى العلم والمعرفة رجاحة العقل التي صقلتها التجربة والممارسة، حيث عمل في خدمة كثير من الأمراء، وعمل في القضاء والتعليم، وسافر إلى أجزاء كثيرة من بلاد المسلمين، وتعرض إلى محن وأرزاء كثيرة مثل دخول السجن، ووفاة أفراد أسرته غرقاً في البحر وهم في طريقهم من تونس إلى مصر حيث كان يقيم في أخريات حياته. ومن الجدير بالذكر أن ابن خلدون ولد في تونس سنة ٧٣٢هـ وتوفى في مصر سنة ٨٠٨هـ (لمزيد من المعلومات عن حياة ابن خلدون انظر. وافي : ١٩٦٢) . .

ويعتبر ابن خلدون من أشهر العلماء المسلمين خارج العالم الإسلامي، يقول عنه

«البارون كارادوفو» : «تزوّدنا أفريقةُ الإسلامية . في شخص ابن خلدون، بعالم اجتماع من الطراز الأول. ولاتجد ذهناً تمثل فسلفة التاريخ بجلاء أكثر مما تمثلها ذهن ابن خلدون . . . ويعد ابن خلدون ألمعيّاً من فصيلة مونتسيكو والأب دو مايْلي. وجداً لعلمائنا في الاجتماع مثل تارد أو المستشرق غُوبينْو» . (كارادوفو. **١٩٧٩ : ٢٥٦** انظر كذلك Duncan, 1964:36 , Johnson, 1981: 12-13) .

ومن مؤشرات ألمعية ابن خلدون وعبقريته تعدد جوانب ثقافته، فقد أخذ من كل فن بطرف، ولذلك يجد القاريء لمقدمته أنها حوت كثيراً من التخصصات العلمية مثل الاجتماع والتربية والتاريخ والسياسة والاقتصاد وغير ذلك من العلوم ولهذا كثرت الكتب والمقالات العلمية والدراسات والبحوث عن ابن خلدون وعن نظرياته وأفكاره .

وقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى عدة عناوين. تحدثت في أولها عن مفهوم المدينة قديماً وحديثاً، حيث تعرضت لمفهومها في اللغة العربية وعند بعض العلماء المسلمين، وبعض العلماء الغـربيين، واختتمت ذلـك الجـزء بمفهوم ابن خلدون عن المدينة والعنوان الثاني كان عن أسباب نشأة المدن، وتحدثت فيه عن أسباب نشأة المدن عند مجمـوعة من العلماء، وانتقلت بعد ذلك للحديث عن أسباب نشأة المدن عند ابن خلدون مستخلصاً ذلك من أماكن متفرقة من المقدمة، وسيجد القارىء عمق نظرة ابن خلدون وشمولها في هذا الجانب، حيث لم يقصر أسباب نشأة المدن على سبب واحد كما فعل غيره وإنما ساق مجموعة من الأسباب تختلف من مدينة إلى أخرى .

أما العنوان الثالث فقد خصصته لموقع المدينة عنه ابن خلدون، حيث أولى هذا الموضوع أهمية خاصة وأشار إلى أن موقع المدينة يجب أن يحقق شيئين هما جلب المنافع ودفع المضار، ولايزال هذان المطلبان من أهم مطالب الحياة، سواء في الريف أو في المـدن. وتحت العنـوان الـرابـع تحدثت عن المدينة ككائن حي متعرضاً لامتدادها وتقلصها وأسباب ذلك وعوامله من وجهة نظر ابن خلدون، أما الجزء الخامس فقد تحدثت فيه عن حياة المدينة كما يراها ابن خلدون، ويعتبر العنوان السادس استكمالاً للعنوان الخامس حيث تحدثت فيه عن مهن المدينة وصنائعها وحرفها كما يراها ابن

خلدون، ومن المعروف أن الحياة في المدينة لا تكتمل صورتها إلا بالحديث عن الحياة الاقتصادية والعملية فيها وعن مهن السكان وحرفهم، التى تبين الفروق بين الفئات الاجتماعية من جهة، وبين الريف والحضر من جهة أخرى. هذا وقد أفردت عنواناً خاصاً لكل مهنة من المهن المهمة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنني لم أحاول في الغالب الأعم أن أعيد صياغة كلام ابن خلدون بل نقلته نقلاً حرفياً وذلك لسببين : الأول : إن ابن خلدون يملك أسلوباً جميلاً وعباراته متماسكة وسلسة، والثاني : أنني لاحظت أن بعض الكتاب يقوّل ابن خلدون مالم يقل. إما خطأً في فهمه، أو مبالغة. أو لتوافق آراءُ ابن خلدون المذهبَ أو الأفكارَ التي يؤمن بها الكاتب أو غير ذلك، ولهذا تجدني في بعض الأحيان أورد كلام ابن خلون ثم استخلص أهم نقاطه، فإن رأى القاريء أنني مصيب فهذا ماأريد، وإن رأي غير ذلك فهذا من حقه، هذا ومن جهة أخرى حاولت أن أطبق كلام ابن خلدون على حياتنا المعاصرة عندما أجد أن ذلك التطبيق ممكناً ومفيداً وأن اختلاف الفترة الزمنية لم يؤثر في قوة الفكرة ووقابليّتها للتطبيق .

مفهوم المدينة بين الماضي والحاضر :

تشير البحوث اللغوية إلى أن كلمة مدينة ترجع في الأصل إلى الفعل «دَيَن» وهو موجود بهذا المعنى في الآراميّة والعربيّة. كما أن «الديّان» يقصد بها في اللغات العربية والعبرية والآرامية «القاضى». وتوافق هذه المعاني ما ورد في القرآن الكريم، وما أشارت إليه بعض المعاجم العربية. فقد وضح من تفسير القرآن إن كل المواضع التي أطلق عليها لفظ «مدينة» كان عليها حكام وملوك، وفيها على وجه التحقيق الصيغة القضائية والدينية والإدارية والسياسية فجاء تمييز المدينة عن القرية في القرآن الكريم على أساس سمة التقاضى (أنظر: الموسوي، ١٩٨٢ : ٣٥٥) .

ويتفق مع ماسبق تعريف بعض الجغرافيين واللغويين للمدينة. فالمقدسي يذكر أنه «قد اختلف في الأمصار فقالت الفقهاء المصر كل بلد جامع تقام فيه الحدود، ويحله أمير، ويقوم بنفقته، ويجمع رستاقه مثل عثّر ونابلس . . وعند أهل اللغة المصر كل

ما حجز بين جهتين مثل : البصرة والزقة وأرجان، والمصر عند العوام كل بلد كبير جليل مثل الري والموصل والرملة، وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حلّه السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقلدت منه الأعمال وأضيفت إليه مدن الأقليم مثل دمشق والقيروان وشيراز» (المقدسي، ١٩٠٩ : والرستاق كما يشير ابن منظور كلمة فارسية بمعنى بيوت مجتمعة (ابن منظور، ج١٠ : ١١٦). ومن التعاريف اللغوية للمدينة ما ذكره ابن منظور من إنها «الحصن يبني في أصطُمّة الأرض. مشتق من ذلك، وكل أرض يُبني بها حصن في أصطُمتها فهي مدينة، والنسبة إليها مديني، والجمع مدائن ومدن (المصدر السابق، ج١٢ : ٤٠٢) والأصطمة معظم الشيء وتمامه .

وفي القرون الأخيرة أصبحت المدينة موضوع علم قائم بذاته هو علم الاجتماع الحضري، ويعتبر كتاب العالم الايطالي (جيوفاني بوتيرو) الذي نشره سنة ١٥٩٨م تحت عنوان (عظمة المدن) أول كتاب يصدر عن المدينة، وكان الكثيرون ينظرون إليه على أنه مجرد فضول علمي لباحث غير متخصص، بحيث لايمكن من خلاله الادعاء بأن صاحبه قد أرسى دعائم علم جديد عن المدينة. ومنذ بداية القرن السابع عشر أصبحت المدينة موضع اهتمام كثير من الباحثين في تخصصات متعددة مثل السكان والاحصاء والإدارة والتخطيط والاصلاح الاجتماعي، الأمر الذي أدى إلى تطور علم الاجتماع الحضري فيما بعد بصورة واضحة وملموسة (انظر: السيّد، ١٩٨٠ : ٢١١ ومابعدها) .

وهناك شبة اجماع بين المشتغلين بعلم الاجتماع على أن البدايات الحقيقة لنشأة علم الاجتماع الحضري وتطوره كمجال متميز للبحث والدراسة كانت على يد العالم الأمريكي (روبرت بارك) (R. Park) الذي نشر مقالاً عن المدينة في سنة ١٩١٥م والتي كانت بداية لفرع جديد في علم الاجتماع يهتم بدراسة المدن ودراسة الحياة الحضرية، ولأهمية الموضوع فقد أعاد (بارك) نشر مقالته في كتيب صغير بالعنوان نفسه، ضمنه بعض الأعمال الرائدة لزميليه (ارنست برجس) (E. Burgess) ، و(رودريك ماكينزي) (R. Mchenzie) . وبعد ذلك بسنة واحدة ظهر كتاب (لبارك وبرجس) بعنوان

(المجتمع المحلي الحضري) (The Urban Community) حدد فيه الباحثان الملامح الاساسية للدراسات الحضرية، ومنذ ذلك الحين والدراسات تتوالى في هذا الحقل (انظر: Bergel, 1955: VIII) .

وتبعاً لتقدم علم الاجتماع الحضري والجغرافيا الحضرية أصبح هناك عشرات التعريفات للمدينة، قدمها علماء الاجتماع والجغرافيا والتاريخ وغيرها من العلوم. فقد عرف «راتزل» المدينة بأنها: «مجموعة دائمة من الناس والمساكن، تغطي مساحة كبيرة من الأرض، توجد على مفترق الطرق التجارية الكبرى». ويتبعه «فاجنر» فيقول: إن المدن هي مواضع تركز النشاط التجاري. أما «فردريك فون رتشتوفن» فإنه يعرف المدينة بأنها «محل إقامة مجتمع لايعتمد في حياته على الزراعة، إنما يعتمد على التجارة والصناعة». ويعرف «جان برنز» المدينة بأنها «المحلة التي يعمل أهلها معظم وقتهم داخلها» (انظر: صادق وآخرون. ١٩٨٣ : ٢١). أما (لويس ويرث) فقد وصف المدينة بأنها محلة عمرانية دائمة تتكون من أفراد مختلفين اجتماعياً وكبيرة الحجم نسبياً وكثيفة (انظر، غلاب والجوهري، ١٩٧٢ : ٥١) .

أما (بوسكوف) (Boskoff) فإنه يعرف مجتمع المدينة بأنها «المجتمع الذي تسيطر عليه أعمال التجارة والصناعة والخدمات، ويتمتع بدرجة عالية من تقسيم العمل، تصاحبها درجة عالية من العلاقات المعقدة، ودرجة عالية من الكثافة السكانية، ويقوم التنسيق والضبط الاجتماعي فيه على أسس غير قرابية» (Boskoff, 1970 :12) .

ولعل محاولة كل من «سروكين» و«زيمرمان» من أفضل المحاولات لتحديد مفهوم المدينة لأنهما قدما تعريفاً للمدينة أكثر شمولاً من خلال افتراض نظري يستند إلى ثمانية معايير (غنيم. ١٩٨٧ : ١٥٤-١٥٥) :

١ - المهنة ، حيث يرتبط معظم السكان بالصناعة والتجارة .

٢ - البيئة، والتي يسيطر عليها الإنسان في محاولة التكيف معها .

٣ - حجم المجتمع، والذي يميل إلى الكبر نسبياً .

٤ - كثافة السكان، حيث تتزايد في المدينة عن الريف .

٥ - تجانس السكان وتمايزهم، حيث ينعدم التجانس إلى حد كبير في المدن .

٦ ـ التنوع والتدرج الطبقي، حيث يتنوع السكان ويتدرجون على عكس الحال في القرية .
٧ ـ الحراك الاجتماعي، حيث يبدو الحراك أكثر وضوحاً .
٨ ـ نسق التفاعل، حيث تتميز بنمط من العلاقات المتعددة والثانوية والتعاقدية .

ومن أفضل التعارف وأشلمها ذلك التعريف الذي قدّمه الدكتور مصطفى الخشّاب رحمه الله والذي اشتمل على العناصر الثمانية كلها التي قدمها كل من «سروكين وزمرمان» فهو يقول : «المدينة وحدة اجتماعية حضرية، محدودة المساحة والنطاق، ومقسمة إدارياً، ويقوم النشاط فيها على الصناعة والتجارة، وتقل فيها نسبة المشتغلين بالزراعة، وتتنوع فيها الخدمات والوظائف والمؤسسات وتمتاز بكثافتها وسهولة مواصلاتها، وتخطيط مرافقها ومبانيها وهندسة أراضيها وتتميّز فيها الأوضاع والمراكز الاجتماعية والطبقية» (الخشّاب، ١٩٨٢ : ١١٢) فهذا التعريف يضم كثيراً من صفات المدينة وخصائصها، ويجمع كثيراً من الجوانب التي ركز عليها الكتّاب في تعريفاتهم للمدينة المعاصرة التى قامت بعد الثورة الصناعية .

هذا ومن ناحية أخرى فإن المدن القديمة التي لم تتأثر بالآلة تختلف اختلافاً كبيراً عن المدن المعاصرة. وهذا ما ألمح إليه «شوبرج» عندما أشار إلى «أن المدن التي لم تتأثر بالثورة الصناعية تشترك جميعاً في نمط واحد متكرر، وهذا النمط يتكرر أيضاً في نطاق واسع من الحضارات مهما اختلف الزمان أو المكان، فهي عامة مدن صغيرة، لايزيد عدد سكان الواحدة منها على مائة ألف نسمة بل أقل. . وليس هذا بمستغرب، إذ أنها غالباً ماتقوم في اقاليم غير عنصرية في مجتمعات لاتزيد نسمه سكان المدن على ٥٪ وتستمد هذه المدن غذاءها من جيرانها المباشرين، حيث لاتوجد وسائل نقل حديثة، ومن ثم يتحدد حجم المدينة بما يمكن أن تحصل عليه من غذاء يقيم أود أهلها» (صادق وآخرون، ١٩٨٣ : ١١) . .

ولعل أفضل من يعرف المدينة قديماً هم أولئك الذين عاشوا فيها وعاصروا نشأتها وتطورها، فالقزويني يقول: «عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا (أي الناس) في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح، ولو تستروا في الخيام والخرقاهات لم يأمنوا

مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب، كما ترى في القرى التي لا سور لها، لم يأمنوا صولة ذي بأس فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق والفصيل فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار. . واتخذوا للمدن سوراً حصيناً، وللسور أبواباً عدة حتى لايتزاحم الناس بالدخول والخروج . . . واتخذوا لها قهندازاً لمكان ملك المدينة، والنادي لاجتماع الناس فيه، وفي البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات ومركض الخيل ومعاطن الإبل ومرابض الغنم وتركوا باقي مساكنها لدور السكان، فأكثر مابناها الملوك والعظماء على هذه الهيئة. . . ثم اختصّت كل مدينة لاختلاف تربتها وهوائها بخاصية عجيبة، وأوجد الحكماء فيها طلسمات غريبة ونشأ فيها صنف من المعادن والنبات والحيوان لم يوجد في غيرها، وأحدث بها أهلها عمارات عجيبة، ونشأ فيها أناس فاقوا أمثالهم في العلوم والأخلاق والصناعات» (القزويني. ؟؟: ٧ ـ ٨).

ولهذا التعريف شمولية تتصل بأسباب نشأة المدن. حيث إنها لاتقام إلا عند اجتماع الهيئة الاجتماعية، ولعله يقصد بذلك تزايد السكان وكثافتهم وأشار كذلك إلى بعض معالم المدينة القديمة مثل السور، ومكان الملك «القهنداز» والنادي للاجتماعات العامة، ثم تحدث عن بعض خصائص المدينة الإسلامية مثل المسجد والحمامات وأشار إلى أنه كان يُخصص أماكن للحيوانات مثل الخيل والأبل والأغنام لاعتماد الناس في حياتهم عليها كما هو الحال بالنسبة لتخصيص مسارات ومواقف للسيارات في وقتنا الحاضر، ويشير القزويني إلى الفصل بين أماكن سكنى الناس وأماكن الحيوانات والدواب، ثم أخيراً يشير إلى اختلاف المدن في التربة والهواء والمعادن والنبات والحيوان وتأثير ذلك على النشاط البشري، ومن ثمّ تتمايز المجتمعات والمدن وتأتي الأجيال اللاحقة لتواصل بناء الأجيال السابقة وربما تتفوق عليها .

أما مفهوم المدينة عند ابن خلدون فإنه متناثر في أماكن عدة من المقدمة حيث يعطي في كل مكان من تلك الأمكنة صفة من صفات المدينة. وبجمع تلك الصفات إلى بعضها يمكننا أن نخرج بتعريف مقبول للمدينة عند ابن خلدون، فمن صفات المدينة عنده الاستقرار والترف «ارتفاع مستوى المعيشة» والدعة والسكون فهو يقول :

«أعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار» (المقدمة : ٨٥١) . ويقول في موضع آخر: «وأيضاً فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير، وهي موضوعة للعموم لاللخصوص فتحتاج، إلى اجتماع الأيدي، وكثرة التعاون» (المقدمة : ٨٤٤). ويقول في موضع ثالث عن الرابطة العضوية بين الدولة والإدارة من جهة والمدينة من جهة أخرى : «إن الدولة والملك للعمران بمنزلة الصورة للمادة. . . وإنفكاك أحدهما عن الأخر غير ممكن على ما قرر في الحكمة، فالدولة دون العمران لاتتصور والعمران دونها متعذر. . . وحينئذٍ فاختلال أحدهما مستلزم لاختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه» (المقدمة : ٨١٣-٨١٤) .

ومما سبق يمكن أن نضع تعريفاً للمدينة من وجهة نظر ابن خلدون يتلخص في أن المدينة كيان مرتبط بالدولة تتخذ مكاناً للسكون والترف والدعة، بها هياكل عظيمة ومبانٍ كبيرة، موضوعة لجميع الناس وليست لفئة معينة، وتقوم على التعاون وتقسيم العمل. وسوف تتضح كثير من معالم المدنية وصفاتها من وجهة نظر ابن خلدون في الصفحات التالية .

أسباب نشأة المدن :

من المرجح أن تكون حياة الجمع والالتقاط وحياة البادية فيما بعد هي المقدمات الأولي التي تلتها عمليات مختلفة لاستقرار الإنسان. . . حيث تجمعت الأسر في مجموعات متآلفة وكونت قرى صغيرة. وقد تكون نواة القرية مكونة في الأصل من أسرة واحدة، ثم تفرعت وتشعبت مع مرور الزمن، وابتعدت الفروع عن الأصول مكونةً أسراً جديدة لها كيانها الخاص واستقلالها التام (انظر: ليبس، ١٩٨٨ : ٧٢ ومابعدها) . .

وحياة القرية تعطي الانسان ميزة الاستقرار والراحة النفسية والحماية الجماعية ومع تطور الزمن وجد في القرية أماكن للعبادة، ومراكز للتجارة ونواد للقاءات، وحياة القرية نقلت الانسان نقلة اجتماعية وحضارية كبيرة حيث علمته المسؤولية والتعاون

والتضحية، فهناك مصالح مشتركة تهم الجميع. وفي القرية نشأت التكوينات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المختلفة وكان لشيخ القرية اليد الطولى والنفوذ الكبير على الحياة في القرية، فالخيوط السياسية والقضائية والاجتماعية والحربية تنتهي إليه في الغالب، مما كان سبباً في نشأة المنافسة بين القرى والتصادم بين أفرادها تنفيذاً لتوجيهات قوادها مما دعا إلى بناء القلاع والأسوار للدفاع والحماية. ولقد أشار القزويني إلى شيء من ذلك في التعريف الذي نقلناه عنه للمدينة .

وعندما تنتصر إحدى القبائل فإنها تبسط نفوذها على القبائل الأخرى. مما يؤدي في الغالب إلى توسع القرى وامتدادها وتكوين نواة المدينة التي تعكس تقدم الانسان بما تحويه من طرق الدفاع والحرب ودور العبادة وأنظمة اجتماعية واقتصادية وسياسية متنوعة. «وقد حاول المؤرخون تصنيف الاختلافات التي تظهر بين المدن المختلفة، وتوصلوا إلى بعض التقسيمات مثل مدن عضوية وغير عضوية، مدن غير مخططة ومدن هندسية، مدن ذات شكل ومدن عديمة الشكل. . . . وغيرها من التقسيمات التي تتسم بالغموض أكثر من الوضوح حيث إنهم وضعوا نصب أعينهم الشكل دون اعتبار للمحتوى. . . ومعنى ذلك أن هناك نمطين للمدن أولهما المدن المسورة، وثانيهما المدن المفتوحة وبين هذين النوعين يوجد عديد من الأنواع الفرعية التى يتشكل كل منها تبعاً لطبيعة المجتمع والعصر الذي نشأت فيه» (غلاب والجوهري. ١٩٧٢: ٢١٢-٢١٣) .

ويبدو أن الغالبية العظمى من المدن التي وجدت في عصر ابن خلدون كانت من النوع الأول وهو نمط المدن المسورة. أما النمط المفتوح فإنه لم ينتشر إلا في العصور الأخيرة، وخاصة بعد تقدم التقنية واعتماد الانسان على الآلة في مواصلاته وانتاج غذائه واحتياجاته الأخرى .

والسؤال الذي يمكن طرحه هو: كيف تم الانتقال من القرية إلى المدينة؟. لقد حاول كثير من الكتاب والمؤرخين الإجابة على ذلك. ومن بينهم «جوردن تشايلد» (G. Childe) الذي أعد دراسة عن الثورة الحضرية، حيث يشير إلى أن القرية تحولت إلى مدينة عندما انتقل الإنسان من مرحلة جمع الطعام إلى مرحلة

انتـاجـه، فبعـد استئنـاس الحيوان وقيام الـزراعـة تغير نمط حياة الإنسان فارتبط بالأرض، واستقر بها بعد قيام المجتمع القروي، وترتب على انتاج الطعام بكميات وفـيرة زيادة في أعـداد السكان التى أدت بدورها إلى زيادة أعداد القرى، وكل قرية كانت مكتفية ذاتياً. بسبب وجود فائض من الطعام، وهذا الفائض أدى إلى أن يتفرغ بعض افراد المجتمع لأعمال وحرف أخرى غير الزراعة مثل التجارة والنجارة وصناعة الأدوات، وكـان ذلـك المجتمـع يشكـل النـواة الأولى للمجتمـع الحضـري (أنظـر: . (Childe, 1951

وقد اعتمد جوردن تشايلد على بعض الاكتشافات الأثرية في وضع بعض المقاييس التي يمكن استخدامها في تصنيف التجمعات العمرانية إلى حضرية وغير حضرية. والمراكز الحضرية القديمة كانت تتميز بالمقاييس التالية (المصدر السابق) :

١ ـ كبر الحجم والاتساع وكثافة السكان التي كانت تترواح في بعض المراكز مابين ١٧ الفاً و٢٠ ألف نسمة. «لاحظ الفرق بين هذا الرقم والرقم الذي اورده شوبرج وهو مائة ألف» . .

٢ ـ عدم انفصالها عن الأرض. حيث كان هناك فئة الزراع إلى جانب فئة الحرفيين والمتخصصين .

٣ ـ وجود فائض من الانتاج والسلع .

٤ ـ وجود رموز للتعبير عن الذات مثل المباني العامة أو النّصب التذكارية والمعابد والمقابر ونحوها .

٥ ـ وجود فروق طبقية بين فئات المجتمع .

٦ ـ القدرة على الكتابة واستخدام التقويم .

٧ ـ التجارة .

ويذكر «لويس ممفرود» أن المدينة نشأت أول مانشأت في أودية بعض الأنهار مثل النيل ودجلة والفرات والسند، وأن البذرة الأولى للمدينة كانت مكان الاجتماع لاقامة الـطقـوس الـدينية. ويذكر كذلك أن حضارة القرية القديمة كانت الحضارة التي انبثقت منها حضارات العالم القديم، ويشير إلى أنه لم يصحب عملية الانتقال من

حضارة القرية إلى حضارة المدينة مجرد الزيادة في الكتلة الموجودة، بل صحبها تغييرات شاملة، وتشكيل جديد، وأهداف جديدة، وقد كان من أهم تلك التغيرات أن الزعيم المحلي تحول إلى ملك شامخ أضيفت عليه صفات الهية وأن حصنه أصبح قلعة ضخمة، وأنه لم يعد يستخدم شجاعته ومهارته في دفع الأذى فقط، بل في تنظيم الجهود والفتح والسيطرة. وعلى هذا يكون صاحب نشأة المدينة نوعان متناقضان من التكافل، أولهما أيجابي يتمثل في تعاون كان على التحكم في الفيضانات وإصلاح أضرار العواصف، وتخزين المياه وإنشاء القنوات، وثانيهما سلبي يتمثل في الحرب والاستعباد، وفي أماكن كثيرة الدأب على الاتجاه نحو التدمير، ويذكر ممفورد كذلك أن هذين النوعين من التكافل صاحبا المدينة عبر العصور إلى وقتنا الحاضر (أنظر : ممفورد : ١٩٦٤) .

ومن العلماء من اتخذ من الاقتصاد مدخلاً لتحديد المجتمع الحضري، ومن هؤلاء (جراس) (N. Grass) في دراسته التى نشرت في عام **١٩٢٢**م حيث تتبع التطور الاقتصادي وربط به أنماط التوطن والاستقرار على مر التاريخ، حيث ميز بين خمس مراحل تطورية أساسية هي :

١) مرحلة الجمع والالتقاط .
٢) مرحلة الرعي .
٣) مرحلة القرية المستقرة.
٤) مرحلة المدينة الصغرى.
٥) مرحلة المدينة الكبرى.

ويؤكد (جراس) على أن تطور الزراعة كأسلوب وطريقة للمعيشة يعتبر من أهم العوامل التي قادت البشرية إلى مراحل أكثر تقدماً وأكثر تحضراً حيث كان السبب لنمو المدن الصغرى نتيجة لتزايد الانتاج الزراعي وتزايد أعداد الحرفيين، وتطوير وسائل النقل وازدهار النشاط التجاري (Grass, 1922) .

أما الدكتور مصطفى الخشاب فقد وضع لنشأة المدن عدة أسباب نجملها فيما يلي :-

١ ـ عوامل طبيعية وجغرافية، .
٢ ـ عوامل نفسية تتمثل في ضرورة الاجتماع للدفاع والاستئناس وتبادل المشاعر.
٣ ـ عوامل اقتصادية تتمثل في ضرورة العمل المشترك وتبادل المنافع وتقسيم العمل .
٤ ـ عوامل دينية .
٥ ـ عوامل سياسية.
٦ ـ عوامل حربية واستراتيجية .
٧ ـ عوامل علمية وثقافية .
٨ ـ عوامل صناعية.
٩ ـ عوامل ترفيهية . (انظر: الخشاب. ١٩٨٢) .

هذا وقد تعددت النظريات الحديثة التي تحاول كشف أسباب نشأة المدن ومنها نظرية «كارل ويت فوجل» (Karel Witt Fogel) ومخلصها إن نشأة المدينة سببها الحاجة إلى تنظيم استغلال المياه، وتنظيم أعمال الري، وقيام المشروعات التي تحتاج إلى إدارة تنظمها، وإلى إنشاءات تستغلها في الزراعة وتطلب ذلك الاهتمام بالتقويم والتاريخ لمعرفة توزيع المياة وموسمها وقد استدلت هذه النظرية بأن المدن القديمة نشأت على الانهار كما هو الحال في مصر والعراق الصين (انظر: (Fogel, 1972) .

وهناك نظرية الضغط في الكثافة السكانية وتكوين الدولة وأصحاب هذه النظرية هم: «روبرت كارنيرو» (R. Carneiro) و«ديكانوف» (I. Diaknof) و«فليب سمث» (Philip Smith) و«كوريل يونج» (K. Young) و«مجواير جبسون» (M. Gibson) وهذة النظرية تقول إن الزيادة في التقنية وموارد العيش تؤدي إلى الزيادة في الانتاج، يتبعها زيادة في السكان، ومن جهة أخرى فإن الزيادة في التقنية تؤدي إلى نشأة مراكز إدارية تقوم على الثروة والسلطة، وكل ذلك يدفع إلى غزو أراض جديدة، وهذا بدوره يؤدي إلى ظهور طبقات اقتصادية، وزيادة في الحروب. وينتج عن الحاجة إلى التنظيم وإعادة التوزيع بواسطة نخبة دينية، ومن جهة أخرى فإن زيادة الحرب يتبعها قيام دولة ذات قوة وتنظيم جيد، فتنشأ المدينة الدولة (أنظر: عثمان، ١٩٨٨ : ٥٠) .

ورغم قِدَم عصر ابن خلدون وعدم وجود الحفريات آنذاك. فإن ما جاء به في المقدمة يرقى إلى مستوى أحداث النظريات. حيث «يفرق ابن خلدون بين الاجتماع الانساني الذي هو مجرد تجمع عددي للأفراد، وبين العمران البشري الذي يعتبره صورة لاحقة للاجتماع الانساني، والذي يتميز بوجود العلاقات الثابتة نسبياً بين الجماعات الاجتماعية التي يعيش فيها الأفراد خاضعين للسلوك الجماعي، ومحافظين على التراث الاجتماعي» (حسن، ١٩٧٧ : ١٠١). فوجود العلاقات الثابتة بين الجماعات وخضوع الأفراد للسلوك الجمعي. ومحافظتهم على مقومات التراث الاجتماعي شروط أساسية عند ابن خلدون للانتقال من حياة البداوة إلى الحياة الحضرية .

ويؤكد ابن خلدون على فكرة تقسيم العمل وأثرها في تماسك الجامعة وإشباع احتياجاتها وتقدمها، عن طريق تنوع التخصصات. ويرى تبعا لذلك أن (الاجتماع الانساني ضروري) حيث يقول في شرح هذه الفكرة: «ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: «الانسان مدني بالطبع» أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران. وبيانه أن الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لايصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء. . . إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء، غير موفيه له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل مايمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ. وكل واحدة من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لاتتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري . . . ويستحيل أن توفي بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد. , فلابد من اجتماع القُدَر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم. فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف» (المقدمة: ٣٣٧) .

وبهذا يؤكد ابن خلدون على تأثير تقسيم العمل على زيادة الانتاج «فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف». وهذا مايؤكده كثير من علماء الغرب المتأخرين، حيث يشيرون إلى أن درجة تقسيم العمل تعتبر من أهم مؤشرات

التقـدم. فكلما كانت تلك الدرجة مرتفعة كان المجتمع أكثر تقدماً وإنتاجاً، وكلما كانت منخفضة دل ذلك على تأخر المجتمع وقلة إنتاجه، لتشابه أفراده وعدم تمايزهم بالتخصص، وكما أن ابن خلدون ضرب مثالاً على تقسيم العمل بالرغيف فإن آدم سمث فعل الشيء نفسه مستخدماً الدبوس. فغيّر في المثال ولكن الفكرة هي نفسها فكرة ابن خلدون. أما دور كايم فقد كانت رسالته للدكتوراه عن تقسيم العمل في المجتمع. وهو الموضوع الذي ناقشه ابن خلدون قبله بخمسة قرون تقريباً (انظر: الخريجي، ١٩٧٩).

وابن خلدون يعتبر تقسيم العمل من أهم أسباب نشأة المدن وذلك للاعتبارات التالية :

أولاً : أن تقسيم العمل يعتبر شرطاً لتأمين الحد الأدنى من الغذاء والذي لا يمكن أن تنشأ أن إلا بعد أن تجاوز حد الكفاية فيه. فهو يقول : «ثم إذا اتسعت أحـوال هؤلاء المنتحلين للمعـاش وحصـل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفة، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثـروا من الأقـوات والملابس، والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر» (المقدمة: ٤٦٨).

ثانيا : إن تقسم العمـل والتعـاون الجماعي يعتبران شرطاً لتأمين الدفاع عن حياة الانســان، ففي حديثه عن «إن الاجتماع الانساني ضروري» يرى إن كل إنسان بحاجة إلى أبناء جنسه للدفاع عن نفسه،. حيث إن حظه أقل من حظ الحيوانـات من آلات الـدفاع عن النفس ومن القدرة على التحمل. «وجعل للانسان عوضاً عن ذلك الفكر واليد. فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر. والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع: مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة. . . فالواحد من البشر لاتقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، ولاتفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها، وكثرة الصنائع

والمواعين المعدة لها. فلابد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه. ومالم يكن هذا فلا يحصل له قوت ولاغذاء ولاتتم حياته» (المقدمة: ٣٣٨).

وبالاضافة إلى توفر الغذاء والدفاع عن النفس ضد الكائنات الأخرى عن طريق التعاون وتقسيم العمل، فإن ابن خلدون يضع شرطاً آخر لابد من تحققه لنشأة المدينة وهو وجود الدولة والحكومة لمنع اعتداء الناس بعضهم على بعض، فهو يقول: «ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه، وتم عمران العالم بهم، فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم. وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم، فلابد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض. ولايكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لايصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك» (المقدمة: ٢٣٩).

وبهذا يتبين لنا أن الاجتماع البشري في أبسط صوره وهي صورة البداوة عند ابن خلدون لابد له من التعاون وتقسيم العمل لتأمين الغذاء ولتأمين الدفاع عن النفس، ولابد من ناحية أخرى من وجود الدولة لدفع اعتداء الانسان على أخيه الانسان، وتوفر هذه الأمور يعتبر شرطاً أولياً وأساسياً عند ابن خلدون لانتقال الانسان من حياة البداوة إلى حياة المدينة، لأنها تتعلق بتوفير الضروري والحاجي للانسان، فإذا توفر ذلك فإن بالإمكان الانتقال إلى توفير الكمالي الذي يرتبط عند ابن خلدون بحياة المدينة، إن حياة البدو عنده عاجزة عن تجاوز المقدار الذي يحفظ الحياة، ويجدر بنا أن نشير إلى أن ابن خلدون يستخدم كلمة «بدو» لتشمل أهل القرى والبدو والرّحل.

أما الانتقال من حياة البداوة إلى حياة المدينة فإنه مشروط عند ابن خلدون بالحصول على مافوق الحاجة كما ذكرنا سابقاً، وكلما زاد توفر الحاجات الكمالية زاد العمران اتساعاً وزادت درجة تقسيم العمل «ثم تزيد أحوال الرفة والدعة، فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في القوت واستجادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالات البيوت والصروح وأحكام

وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل (من النظرية إلى التطبيق) إلى غاياتها، فيتخذون القصور والمنازل، ويجرون فيها المياه، ويعالون في صرحها . . . وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان. ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة. وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو، لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم» (المقدمة: ٤٦٧-٤٦٩) .

ومن هذا يتبين أن سبب نشأة المدن عند ابن خلدون يتعلق بتجاوز توفير الضروري من الانتاج إلى انتاج الكمالي، ولقد كرر ابن خلدون هذا المعنى في مواضع كثيرة من المقدمة، ومن ذلك قوله: «قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم. ولاشك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه، لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشىء عنه. فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما، لأن أول مطالب الانسان الضروري، ولاينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلاً . . . ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها. وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها. ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة، وأمكن نفسه إلى قيادة المدينة. وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم. والحضري لايتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل المدينة» (المقدمة: ٤٧٣) .

وتجاوز حد الكفاف من الانتاج إلى الوفرة والزيادة عن الحاجة يؤدي إلى تمكن مجموعة من الناس من التفرغ لانتاج الكماليات من صناعة وتجارة وحرف مختلفة وتلك أهم خصائص الحياة الحضرية. وهذا السبب الذي توصل إليه ابن خلدون هو السبب نفسه الذي قال به كثير من الكتاب والمفكرين المعاصرين مثل (جوردن تشايلد) و (جراس) .

وابن خلدون يعترض لأسباب إخرى لنشأة المدن. ومن ذلك وجود الدولة والملك. حيث يعتبرها ابن خلدون شرطاً وسبباً لنشأة المدن. أما كونه شرطاً فإن المدن لايمكن

أن تنشأ بدون وجود الدولة. وأما كونها سبباً فإن من دواعي الملك والدولة اختطاط المدن ونزولها، وعقد ابن خلدون لذلك عنواناً مستقلاً هو: «فصل في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار» شارحاً ذلك بقوله: «إن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين: أحدهما ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وحط الاثقال، واستكمال ماكان ناقصاً من أمور العمران في البدو، الثاني دفع مايتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين لأن المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم، وانتزاع ذلك الملك الذي سموا إليه من أيديهم فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم، ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة، والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة بما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كبير عدد ولاعظيم شوكة» (المقدمة: **٨٤٥-٨٥٦**).

ولعل هذا يفسر عدم وجود مدن ذات شأن كبير في الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية إلا ما كان في اليمن لوجود الدولة والاستقرار النسبي، وفي مكة لوجود العامل الديني كما سنرى، ولوجود مسحات من الكيان السياسي يتمثل في إمارة بني هاشم ورعايتهم للبيت. أما بقية الأجزاء فقد كانت القبائل تقضي أكثر وقتها في الحروب، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا عاجزين عن تجاوز الضروري إلى توفير الكمالي، ولذلك لم يؤسسوا دولة ومن ثم لم تقم مراكز حضرية كبيرة، وبالاضافة إلى الأسباب الاقتصادية والسياسية والحربية فإن ابن خلدون يضيف سبباً آخر لنشأة المدن، ذلكم هو السبب الديني. فهناك مدن نشأت لأسباب دينية وهناك مدن نمت وتطورت بعد أن صار لها مكانة دينية في نفوس الناس. ومن النوع الأول مكة المكرمة والقدس الشريف، ومن النوع الثاني المدينة المنورة. ولقد تحدث ابن خلدون عن هذه المدن قائلاً: «وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض فيما علمناه حسبما ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس، أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، أمره الله ببنائه، وأن يؤذن في الناس بالحج إليه، فبناه هو وابنه إسماعيل كما نص عليه القرآن، قام بما أمره الله فيه، وسكن اسماعيل فيه مع هاجر ومن نزل معهم من جُرْهُم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه. وبيت

المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام، أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله. ودفن كثير من ولد إسحق عليه السلام حواليه» (المقدمة: ٨٥٤).

والسبب الديني واضح وصريح في بناء مكة وبيت المقدس، فالأول بناه إبراهيم بأمر من الله، والثاني بناه داود وسليمان بأمر من الله كذلك. بل إن هناك من المؤشرات مايشير إلى انتفاء العامل الاقتصادي الذي قصر «جوردن تشايلد» وغيره من العلماء المعاصرين نشوء المدينة عليه، إذ يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾

(إبراهيم -٤١)

فلو أن السبب الاقتصادي هو السبب الوحيد لنشأة المدن لما أسكن إبراهيم ذريته بواد غير ذي زرع، ولكن السبب هنا يعود إلى أن الله قد اختار هذه البقعة وفضلها على غيرها، ويسر لها رزقها الذي يأتيها من كل مكان.

أما المدينة المنورة فإن وضعها يختلف عن مكة وبيت المقدس، فقد كانت معمورة قبل أن يهاجر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليها وكان فيها زراعة وعمران، ولكنها كانت صغيرة، نمت وتطورت بعد هجرة الرسول اليها وصحبه الكرام ـ رضى الله عنهم جميعاً. وفيها يقول ابن خلدون: «وأما المدينة وهي المسماة بيثرب، فهي من بناء يثرب بن مهلايل من العمالقة وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز، ثم جاورهم بنو قيلة «الأوس والخزرج» من غسان، وغلبوهم عليها وعلى حصونها، ثم أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها، فهاجر إليها ومعه أبوبكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد أعده لذلك، وشرفه في سابق أزله، فآواه أبناء قبيلته ونصروه، فلذلك سمو الأنصار، وتمت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على الكلمات. وغلب على قومه وفتح مكة وملكها. وظن الأنصار أنه يتحوّل عنهم إلى بلده فأهمهم ذلك. فخاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخبرهم أنه غير متحول. حتى إذا

قُبض صلى الله عليه وسلم كان ملحده الشريف بها وجاء في فضلها من الأحاديث الشريفة مالاخفاء فيه» (المقدمة : ٨٦٦) .

ومما سبق يتضح لنا شمول نظرة ابن خلدون حول أسباب نشأة المدن فلم يقصرها على سبب واحد كما فعل بعض الكتاب المعاصرين، بل حاول أن يبين أن لنشأة المدن أسباباً كثيرة منها السياسي، ومنها الحربي، ومنها الاقتصادي، ومنها الديني، ومنها غير ذلك. كما بين ابن خلدون أن هناك شروطاً يجب توفرها كقاعدة أساسية لنشأة المدن، ومن تلك الشروط تجاوز حد الكفاية من الانتاج، والتعاون وتقسيم العمل. ووجود الدولة والملك .

موقع المدينة :

لقد أعطى ابن خلدون أهمية خاصة لموقع المدينة وموضعها وهناك فرق بين الاثنين عند الجغرافيين، (فالموضع هو الذي يمثل المكان الذي تغطيه «تشغله» المدينة أو المستوطنة فعلاً، والذي يشمل كل الخصائص الطبيعية لذلك المكان. أما الموقع فهو الذي يمثل مكان المدينة «موضعها» بالنسبة لما يحيطها من مساحة تتفاعل معها بشكل أو آخر» (الأشعب، ١٩٧٩ : ٣٢٤) .

فمن ناحية أهمية الموضع والموقع يؤكد ابن خلدون على ضرورة مراعاة أمرين هما :

١ ـ دفع المضار والأخطار وكل مايهدد الحياة في المدينة .

٢ ـ جلب المنافع وتسهيل المرافق التي تجعل الحياة ميسرة ومريحة في المدينة .

ويعلق الدكتور سابا جورج شبر على فكرة ابن خلدون حول دفع المضار وجلب المنافع في المدن قائلاً إن هذه هي ربما المرة الأولى في التاريخ التي يُذكر فيها «نظرية تحديد استعمال المناطق المختلفة» (Zoning) التى نجدها في عصرنا هذا. وهذه النظرية هي الأولى من نوعها في تاريخ تطور المدن، وفي أوربا بدأ استخدام هذه النظرية منذ حوالي قرن من الزمن، وقد اتخذت شكل القانون بعد خلافات عديدة (انظر، شبر: ١٩٦٦ : ١٨٧) .

ودفع المضار متعلق إلى حد كبير بالموضع وهو المكان الذي تغطية المدينة، وفي هذا

يقول ابن خلدون: «فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعاً سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها» (المقدمة: ٨٥١).

أما جلب المنافع فإنه يتعلق بالموقع. وهو مكان المدينة بالنسبة لما يحيط بها من مساحة، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور. منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرة، فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقه عظيمة عامة، ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم. إذ صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولابد من المرعى، فإن كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بحالهم، لما يعانون من المشقة في بعده، ومما يراعى أيضاً المزارع فإن الزروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه، وأقرب في تحصيله، ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ والخشب أيضاً ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم، وقد يراعى ايضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية، إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول». (المقدمة: ٨٥٣).

ويجب إلا يغيب عن بال القاريء أن ابن خلدون عاش في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، قبل أن تخترع الآله وتتعقد أمور الحياة. ولذلك فهو يصف مدينة عصره حيث كان الانسان يعتمد في حياته على الطبيعة ويعتبر نفسه جزءاً منها، ففي المقطع السابق إشارة إلى أن المدينة تجمع إلى جانب التجارة والحرف اعمالاً تتعلق بتربية الحيوان والزراعة. فتربية الحيوان كانت جزءاً من الحياة، باعتباره كان وسيلة النقل والمواصلات وأداة من أدوات الحرب. بالاضافة إلى الفوائد الأخرى التي تجنى من لحمه وصوفه وجلده وكذلك المزارع عندما تكون قريبة من المدينة فإن مؤونة النقل تخف، وخاصة في ذلك العصر الذي كان النقل فيه صعباً ومكلفاً، بالاضافة إلى تقليل خطر انقطاع المؤونة من البلدان الأخرى.

ولو أردنا أن نطبق كلام ابن خلدون على مدننا اليوم، لوجدنا أنه ليس من الضروري أن يكون البلد على نهر أو بازائها عيون ثرة عذبة، فالآلة اليوم مكنت الانسان من تحلية المياه ومن نقل المياه العذبة من مسافات بعيدة، فالرياض يأتيها جزء كبير من احتياجاتها من المياه من محطة تحلية مياة البحر في الجبيل على ساحل الخليج العربي، ومكة المكرمة والطائف تأتيهما المياه من محطة التحلية في جدة. أما أهمية الماء فإنها لاتتغيّر في كل العصور ولن تستطيع الآلة جعل الكائنات الحية تستغنى عنه، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ «الأنبياء»: ٢١.

ولهذا وضعه ابن خلدون أول بند في قائمة جلب المنافع.

وإذا كان عصر ابن خلدون يعتمد على الحيوان في المواصلات والنقل والحروب وغير ذلك، بحيث يشترط قرب المراعي من المدن والمراكز الحضرية، فإن ذلك يشبه اشتراط قرب محطات الوقود من المستهلكين في مدننا المعاصرة باعتبارها مادة تسيير آلات المواصلات والصناعة والخدمات الأخرى. أما قرب الشجر لتوفير الحطب وأدوات البناء فقد حل محلها اليوم محطات الكهرباء ومراكز توزيع الغاز وتوفر الاسمنت والحديد وغير ذلك من أدوات البناء المعاصرة، ولايمكن أن نتصور مدينة تخلو من هذه الخدمات اليوم إلا إذا كانت مدينة في بلد فقير ومتخلف، ورغم ذلك فلا بد من وجود بعض هذه الخدمات وإلا لايطلق على ذلك التجمع مدينة.

والكل يعلم اليوم أن البلد الذي ينتج حاجاته بنفسه أفضل حالاً من البلد الذي يستوردها، لأن في الاستيراد استنزاف لثروة البلاد، فبالاضافة إلى أنه مهدد بالانقطاع في أى وقت بسبب الحروب والتغيرات الاقتصادية والسياسية. وقد يتخذه المصدّر أداة للضغط في وقت الحاجة، كما فعلت الولايات المتحدة الامريكية من منع تصدير القمح إلى الاتحاد السوفيتي في أكثر من مرة ولأسباب مختلفة، وكما فعل العرب من قطع النفط عن الدول التي كانت تقف وراء اسرائيل في حرب رمضان من عام **١٣٩٣**هـ. **١٩٧٣**مـ. ولقد تنبه ابن خلدون إلى هذه النقطة عندما ذكر أن المدينة يمكن أن يراعى قربها من البحر لتسهيل استيراد الحاجات من البلاد النائية، «إلا أن ذلك ليس

بمثابة الأول» كما يقول ابن خلدون. أي ليس بمثابة قرب تلك الحالات من المدينة وانتاجها محلياً.

وابن خلدون كما علمنا رجل تمرس في السياسة وكثرت أسفاره، وتعددت تجاربه، لذلك لاغرابه أن يتحدث عن النواحي الحربية والأمنية لمواقع المدن، وهو مايسمي في مصطلح اليوم بـ «الاستراتيجية» وأن يطلب أن يراعى ذلك عند اختطاط المدينة واختيار مكانها، فهو يقول: «ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل، وتكون بين أمة من الأمم موفورة العدد «العمق البشري» تكون صريخاً للمدينة متى طرقها طارق من العدو. والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحاتها عمران للقبائل أهل العصبيات، ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الاساطيل البحرية... لما يأمن من وجود الصريخ لها... ومتى كانت القبائل والعصائب مستوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى اسنمتها، كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها، لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريخها» (المقدمة: **٨٥٣-٨٥٤**).

ومن الجوانب المهمة التي تنبه لها ابن خلدون تلك الجوانب التي تتعلق بسلامة البيئة ونقاء عناصرها والتي لم تصبح موضوعاً للبحث في كثير من دول العالم إلا في الآونة الأخيرة. لقد اشترط ابن خلدون في موقع المدينة إن يكون طيب الهواء بعيداً عن الركود والعفن، حيث يقول: «ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض. فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً، أو مجاوراً للمياه الفاسدة، أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليه العفن من مجاورتها، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لامحالة، وهذا مشاهد، والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب» (المقدمة: **٨٥٣**).

لقد كانت مصادر تلوث الهواء قليلة ومحدودة في عصر ابن خلدون. ورغم ذلك تنبه لها ولفت الأنظار إلى أهميتها. ولاندري ماذا سيقول لو أنه عاش في عصر مثل عصرنا الذي تعددت وتنوعت فيه مصادر تلوث الهواء من دخان مصانع، وعوادم

سيارات، ونفيات متراكمة، وأمطار حمضية، وغير ذلك من مصادر تلوث البيئة. إن مدينة اليوم تعاني بلاشك من فساد الهواء أضعاف ما كانت تعانية مدينة الأمس، ولهذا الفساد البيئي أثار سلبية على جميع الكئائنات الحية، وفي مقدمتها الانسان. حيث تؤثر في صحته ونفسيته وانتاجه. ولهذا يجب الاستفادة من لفتة ابن خلدون، ومن تجارب الدول المتقدمة التي تعاني فيها البيئة من مشكلات كثيرة، أدت إلى نشأة جمعيات المحافظة على البيئة، مثل جمعية السلام الأخضر، ونادي روما، إن الجهود يجب أن تتظافر للمحافظة على سلامة البيئة ونقاء هوائها حتى نتجنب المشكلات التي أشار اليها ابن خلدون وأثبتتها تجارب العلم الحديث «حول موضوع البيئة انظر: نجم وآخرون، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، والشرنوبي: ١٤٠١هـ، ١٠٩٨١م.).

ومما سبق يتضح لنا أن ابن خلدون قد أخذ في الاعتبار عدة أمور تتعلق بموقع المدينة وموضعها، لخصها في أربع كلمات هي: جلب المنافع ودفع المضار. وجلب المنافع مفهوم شامل لتوفير كل خير لسكان المدن، ودفع المضار مفهوم شامل لمنع كل شر وبلاء عنهم. ولقد كانت هذه المطالب ولازالت وستظل من أهم المطالب التي يسعى الناس جميعاً لتوفيرها، كل حسب عصره، وحسب ظروفة وقدراته.

المدينة كائن حي:

بعد اختطاط المدينة وتأسيسها لأي سبب من الأسباب سواء أكان ذلك السبب دينياً أم اقتصادياً ام سياسياً ام حربياً فإن تلك المرحلة للمدينة تشبة مرحلة الميلاد لأي كائن حي. ومن المعلوم أن جميع الكائنات الحية بعد الولادة تتصف بصفات الضعف والنقص وصغر الحجم، ثم تأخذ بعد ذلك في النمو وريداً رويداً، حتى تبلغ مرحلة النضج والاكتمال. ومن هذه الكائنات من يوافيه الأجل في صغرة وبعد ولادته مباشرة، ومنها من يوافيه الأجل في مرحلة الشباب، ومنها من يؤخر أجله إلى مراحل متأخرة من العمر.

والمدن والأمصار تشبه الكئائنات الحية من هذا الوجه فالمدينة تبدأ صغيرة، ثم تأخذ في النمو قليلاً قليلاً، وقد يكون نموها بطيئاً، وقد يكون سريعاً لتوفر دواعية

وعناصره، وهناك مدن ماتت في مهدها، ومدن أخرى ماتت في شبابها، ومدن عمرت طويلاً تمتد حيناً وتنكمش حيناً آخر حسب الظروف السياسية والاقتصادية والحربية .

وحول انتشار المدينة ونموها والعوامل التي تتحكم في أسعار الأراضي واستغلالها قام (جونسون) باستعراض بعض النظريات، وفيما يلي أهمها. (انظر: والجوهري. ١٩٧٢ : ٢٨-٢٩):

١ - النظرية المتمركزة (The Concentric Theory) والتي قدمتها مدرسة شيكاغو في الفترة مابين ١٩٢٠م و ١٩٣٠ وتتركز هذه النظرية على ان نمو المدينة يتجه من الوسط إلى الأطراف ويكون سلسلة من المناطق المتمركزة الدائرية .

٢ - نظرية المقطع (The Sector Theory) التى تقدم بها (هومر هويت) (Homer Hoyt) عن المدن الأمريكية في عام ١٩٣٩م وتعتمد على فكرة أن قطاعات متميزة من استغلال الأرض يمكن أن تنمو من وسط المدينة إلى خارجه وإنها ترتكز على طرق النقل الرئيسية .

٣ - نظرية النويات المتعددة (Multiple Nucteir Theory) وتقدم بها الجغرافيان هاريس (C. Harris) و (اولمان) (E. Ulman) في عام ١٩٤٥م وتعتمد النظرية على أن لكل مدينة نواة اساسية في تركيبها وان الانماط المختلفة من استغلال الأرض قد نمت حول نقط معينة أو نويات في داخل المدينة .

ولقد تنبه ابن خلدون لقضية نمو المدن. حيث يقول: «اعلم أن الأمصار إذ اختطت أولا تكون قليلة الساكن، وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعاني على الحيطان عن التأنق كالزُلُج (الصخور الملس) والرخام والربج (الدرهم الصغير الخفيف) والزجاج والفسيفساء والصدف، فيكون بناؤها يومئذ بدوياً وآلاتها فاسدة. فإذا عظم عمران المدينة وكثر سكانها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ، وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها بذلك كما سبق بشأنها» (المقدمة: ٨٧٠) .

ومن المعروف أن الأشخاص يختلفون في مهنهم وتخصصاتهم فما يجيده شخص قد لايجيده الآخر كما أن النباتات والأشجار تختلف في ثمارها، وكذلك المدن تختلف صناعاتها وانتاجها. يقول الاستاذ (جونز) (E. Jones) في كتابه (المدن) إن كل مدينة

علم فرد في ذاته ولها شخصيتها الخاصة المستقلة، وتتميز بتاريخ خاص يطبعها بطابع معين يجعلها مختلفة عن غيرها (انظر: Jones, 1966) .

وتخصص المدن أوضح ما يكون في وقتنا الحاضر فهناك مدن تخصصت في صناعة السيارات مثل ديترويت في الولايات المتحدة الأمريكية ومثل باريس في فرنسا المتخصصة في صناعة العطور، وغير ذلك من المدن التي اشتهرت بإنتاج خاص عرفت به بين المدن واشتهرت به في العالم .

ولقد عقد ابن خلدون لهذه الحقيقة فصلاً خاصاً بعنوان: «فصل في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض» ومما قاله فيه: «وذلك إنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضاً لما في طبيعة العمران من التعاون. ومايُستدعى من الأعمال يختص ببعض أهل المصر، فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته، ويختصون بوظيفته، ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه، لعموم البلوى به في المصر والحاجة إليه. وما لايُستدعى يكون غفلاً إذ لا فائدة لمنتحله في الاحتراف به. ومايُستدعى من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها. ومايستدعى لعوائد الترف وأحواله فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة والآخذة في عوائد الترف والحضارة، مثل الزّجّاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار (صانع الصفر وهو نوع من النحاس) والفراش والدبّاج (النقاش) وأمثال هذه. وهي متفاوته. وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع. فتوجد بذلك المصر دون غيره. ومن هذا الباب الحمامات لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التنعم. ولذلك لاتكون في المدن المتوسطة. وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها (أي الحمامات) ويجري أحوالها، إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس، فسرعان ما تهجر وتخرب، وتفر عنها القَوَمة لقلة فائدتهم ومعاشهم منها. والله يقبض ويبسط» (المقدمة: ٨٩٦-٨٩٧) .

ويذكر الدكتور خالص الأشعب أن ابن خلدون استوعب المدينة بطريقة لم تستوعبها المجلدات المعاصرة. لقد استوعبها على أنها إنسان يسكن ويبني ويعمل

ويتثقف ويمارس الإدارة. لقد فهم ابن خلدون المدينة على إنها كائن حي قد ينمو ويزدهر أبداً، وقد يتوقف عن النمو، بل قد يموت، فالمدينة بالنسبة لابن خلدون فضاء (مساحة) وزمان وإنسان (انظر: الأشعب، ١٩٧٩ :٣١٨-٣١٩) .

ومن الغريب أن نجد باحثاً معاصراً مثل الدكتور محمود الكردي يعيب على ابن خلدون إيمانه بهذه الأفكار، حيث يقول: «ولايمكننا أيضاً أن نتجاوز عن آراء ابن خلدون المتطرفة حول إصابة المجتمعات بحالة الهرم، ورغم أن ذلك متسق مع فكرته التطورية للمجتمعات. . . إلا أن اختبار هذه الفكرة مع واقع كثير من المجتمعات ينبيء عن خطئها الفادح. ولعل خطأ ابن خلدون نجم عن ربطه - غير المنطقي - بين عملية التحضر التي يمر بها المجتمع وحالة الفساد التي يراها ملازمة لذلك، الأمر الذي ينتهي بها حتماً - طبقاً لرأيه - للهرم والاضمحلال والزوال. وإذا تتبعنا مسيرة التاريخ في تفحص مسألة التحضر ونشأة المدن لوجدنا أنه لايكاد يخلو مؤلف أو بحث يتناول القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عموماً من الإشارة لتلك المسألة وتحليلها سواء اعتماداً على منظور تاريخي، أورؤية واقعية. أوكل ذلك مجتمعاً» (الكردي، ١٩٨٤ : ٣٥-٣٦) .

ولاندري ما التطرف في آراء ابن خلدون الذي أشار إليه الكاتب إذا كان لايخلو مؤلف أو بحث يتناول القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من الإشارة إلى مسألة إصابة المجتمعات بحالة الهرم. وكم كنا نتمنى أن يقوم الدكتور الكردي بإثبات الخطأ (الفادح) لهذه الفكرة اثباتاً علمياً منطقياً، فلايكفي أن يقول أن واقع كثير من المجتمعات ينبيء عن ذلك. حيث إن هناك أدلة تاريخة كثيرة تثبت صحة رأي ابن خلدون فالحفريات تظهر كل يوم أدلة على أن هناك مدناً أصابها الهرم، ومن ثم أصابها الفناء مثل مدينة الفاو في جنوب الجزيرة العربية، والكل يعرف شيئاً عن بقايا مدن لم تعد مأهولة بالسكان مثل مدائن صالح ومدينة البتراء في الاردن. يضاف إلى ماسبق أن هناك مجتمعات كانت تقود العالم أصبحت اليوم تابعة لغيرها، ممايشير إلى أن شيئاً من الهرم قد أصابها، والهرم له صور كثيرة منا الاقتصادية والفكرية والعمرانية والسياسية وغير ذلك من صور الهرم. ولعل هذا يوضح لنا صواب رأي ابن خلدون في هذه المسألة .

وهناك عوامل كثيرة عند ابن خلدون تؤثر في نمو المدينة وتقلصها ومن ثم خرابها وخلوها من سكانها. ومن هذه الأمور عنده طول فترة الاستقرار وطول فترة السلطة المركزية، وفي هذا المعنى يقول: «وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح، إلى أن تتسع الخطة، وتبعد المسافة، وينفسح ذرع المساحة، كما وقع ببغداد وأمثالها. ذكر الخطيب في تاريخه: إن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام، وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين، ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لافراط العمران. وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الاسلامية، وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد) (المقدمة: ٨٤٤).

ويعقد ابن خلدون في مكان آخر فصلاً خاصاً في هذا الموضوع تحت عنوان (فصل في أن الحضارة في الامصار من قِبَل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها) يقول فيه (والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر. وتقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع. ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه والمهرة فيه. وبقدر مايتزيد من أصنافها تتزيد أهل صناعتها، ويتلون ذلك الجيل بها. ومتى اتصلت الأيام، وتعاقبت تلك الصناعات حذق اولئك الصناع في صناعتها، ومهروا في معرفتها. والأعصار بطولها وانفساح امدها وتكرير امثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً. وأكثر مايقع ذلك في الأمصار لاستبحار العمران وكثرة الرفة في أهلها وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة... ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحداً بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً) (المقدمة: ٨٨٣-٨٨٤).

ومن العوامل التي تنبه لها ابن خلدون والتي لها علاقة بازدهار المدينة ونموها كون المدينة عاصمة للقطر، ومكاناً للحاكم والمؤسسات الحكومية المختلفة، وفي هذا يقول: (ولهذا تجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها

أحـوال البداوة، وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها، بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها. وما ذلك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم. كالماء يخضر ما قرب منه فما قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد. وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم، فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه، وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة» (المقدمة: ٨٨٤).

والمقطع السابق لابن خلدون ينطبق على مدينة الرياض التي تتوسط جزيرة العرب وتقع منها موقع القلب، فهي عاصمة البلاد ومقر الحكومة وبها كثير من المؤسسات التعليمية والإدارية والصناعية وغير ذلك من المؤسسات التي ساهمت وساعدت في نمو المدينة وانتشارها أفقياً ورأسياً. فالرياض تطورت وتضاعفت مساحتها كثيراً في العقود الأخيرة، وأصبحت عوامل الجذب فيها كثيرة ومتنوعة، مما أدى إلى مضاعفة سكانها مرات عدة في العقود الأخيرة لهجرة الناس إليها من داخل البلاد وخارجها، إلا أن الـرياض ليست سوق البلاد الوحيدة فالاقتصاد السعودي القوي تمكن من تقديم الخدمات إلى جميع المراكز الحضرية، فتعددت هذه المراكز، وتطورت وازدهرت مثل جدة ومكة المكرمة والطائف والمدينة المنورة والدمام وغير ذلك من المراكز الحضرية المتنامية.

ومن عوامل ازدهار المدن وتوسعها عند ابن خلدون عودة السلطة المركزية إلى المدينة بعد تغير تلك السلطة، وفي ذلك يقول: (وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الأولين، ملك آخر، ودولة ثانية يتخذها قراراً وكرسياً، يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينـزلها، فتحفظ تلك الدولة سياجها وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثـانية وتـرفهـا، وتستجـد بعمرانها عمراً آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد» (المقدمة: ٨٤٥).

ومن المعـروف أن الكثـافـة السكانية تلعب دوراً بارزا في نمو المدن واتساعها، فالكثافة السكانية توفر الأيدي العاملة الرخيصة من جهة وتوفر سوق الاستهلاك من جهة أخرى. وابن خلدون أشار إلى شيء من ذلك عندما قال: «فإذا تراجع عمرانها (أي المـدينـة) وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك، ففقدت الاجادة في البناء

والأحكام والمغالاة عليه بالتنميق. ثم تقل الأعمال لعدم السكان، فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما، فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التي في مبانيهم، فينقلونها من مصنع إلى مصنع لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل بقلة العمران وقصوره عما كان أولاً، ثم لاتزال تُنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يُفقد الكثير منها جملة، فيعودون إلى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة، والقصور عن التنميق بالكلية، فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمداشر، ويظهر عليها سيماء البداوة، ثم تمر في التناقص إلى غايتها من الخراب إن قدر لها به» (المقدمة: ٨٧١).

ويعلق الدكتور عبد الغني مغربي على نظرة ابن خلدون للعامل السكاني ويقارن آراءه بآراء بعض المفكرين المتأخرين فيقول: «ونرى من خلال هذا الكلام أن ابن خلدون يعلق بحق أهمية كبرى على العامل الديموجرافي (السكاني). فابن خلدون يرى مايراه جان بودوان... حين قال «لاثروة إلى بالرجال» (المفروض أن يقول إن جان بودوان يرى مايراه ابن خلدون لسبق ابن خلدون)، فموقف ابن خلدون من العامل الديموجرافي هو موقف عكسي للنظرية التشاؤمية التي امتاز بها توماس روبير مالتوس... وإذا كان البارامیتر (المعيار) الديمرجرافي في نظر ابن خلدون هو الذي يسمح للنشاط الاجتماعي والاقتصادي بأن ينمو ويزدهر، فإن تركيزه النظامي والمنظم لايمكن أن يحصل إلا في مدينة لها أهمية من حيث جميع الوجوه». (مغربي ١٩٨٦: ١٧٧ــ١٧٨).

والاستعانة بأهل الخبرة والتجربة في بناء وتشييد المعالم الحضارية الكبيرة اجراء قديم درجت عليه المجتمعات، وخاصة عندما تكون الدولة في بداية نهضتها وتقدمها، ولم يتهيأ لها إعداد الكوادر المحلية، لأن ذلك يحتاج إلى وقت طويل. ففي فترة من فترات تاريخ فرنسا كان بها حوالي خمسة عشر ألفا من العمال والفنيين الانجليز للمساعدة في نهضتها وبنائها (انظر: مصطفى وحسن: ١٩٨٥). ولقد ادرك ابن خلدون هذه الحقيقة عندما قال: «عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى غير قطرها، كما وقع للوليد بن عبد الملك حين اجمع بناء مسجد المدينة

والقدس ومسجده بالشام، فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث إليه منهم من حصّل له غرضه من تلك المساجد» (المقدمة: ٩٤٨) .

وقدرة الدولة المالية، وانتعاشها الاقتصادي ينعكس أول ماينعكس على مدنها حيث تتنوع وتتطور فنون البناء. ويزداد ارتفاعه رأسياً وانفساحه وانتشاره أفقياً، وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون: «إن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفَعَلة وكثرتهم وتعاونهم، فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حُشِر الفعلة من أقطارها، وجمعت أيديهم على عملها. وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام (الآلات والأجهزة) الذي يضاعف القوي والقُدَر في حمل أثقال البناء، لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمحال وغيره» (المقدمة: ٨٤٧) .

وكأن ابن خلدون يصف مدننا اليوم حيث تطورت واتسعت كثيراً خلال العقود القليلة الماضية، فقبل توحيد الجزيرة العربية على يد الملك عبدالعزيز رحمه الله ـ كانت أكثر مدن المملكة قرى كبيرة، يحيط بأكثرها سور مثل المدن التي وجدت في عصر ابن خلدون، ومن تلك المدن التي كانت تحيط بها الأسوار إلى عهد ليس ببعيد الطائف وجده والرياض وأبها وغيرها من المدن، أما المنطقة الشرقية فلم يكن بها من التجمعات مايستحق إطلاق لفظ المدينة عليه سوى الأحساء. أما اليوم فإن مدن المملكة اتسعت وانتشرت وكثر عددها وتضاعف عدد سكانها وحُشر لها الفعلة والعمال والمهندسون من جميع البلدان، وما ذلك إلا دليل على عظمة الدولة واتساعها كما يقول ابن خلدون .

ومن جهة أخرى يرى ابن خلدون أن السبب في ارتفاع مستوى رفاهية المجتمع، والطريق الرئيسي لتطور المجتمع، وزيادة السكان في القطر، وكثافة القوة العاملة في المدن هو «زيادة كمية العمل». ورفاهية المجتمع وتطور الحياة الاجتماعية يتحددان بكمية الانتاج التي ينتجها المجتمع، والتي تستخدم في اغلبية الاحتياجات الضرورية للناس، ثم في تلبية «حاجات الترف» كذلك. وعندما يقتصر المجتمع على انتاج المحصولات الضرورية فحسب، فإنه لايستطيع أن يتخلص من الفاقة والتخلف، ولكنه عندما يبدأ في انتاج الفائض يرتفع مستوى معيشته وتتسع مدنه، وبناء على ذلك

فإن اساس تطور المجتمعات واتساع المدن هو زيادة الانتاج، وزيادة التخصص وتقسيم العمل وزيادة السكان التي تؤدي إلى زيادة العرض والطلب ومن ثم ارتفاع مستوى المعيشة الذي يعبر عنه ابن خلدون بالرفاهية (انظر: باتسييفا، ١٣٩٨/ ١٩٧٨ : ٢٣٧-٢٤٠) .

ومما سبق يمكننا أن نلخص عوامل نمو المدن وتطورها من وجهة نظر ابن خلدون في النقاط التالية :-

١ - طول فترة الاستقرار وطول فترة السلطة المركزية .
٢ - كون المدينة عاصمة للقطر ومقراً للحاكم وللمؤسسات الحكومية المختلفة .
٣ - عودة السلطة المركزية إلى المدينة بعد تغير تلك السلطة .
٤ - زيادة الكثافة السكانية والعددية في الدولة والمدينة .
٥ - زيادة تقسيم العمل وزيادة التخصص اللذين يؤديان إلى زيادة الانتاج الذي يعتبره ابن خلدون أهم الأسباب المؤدية إلى نمو المدن واتساعها.
٦ - الاستعانة بأهل الخبرة والمهارة من داخل البلاد وخارجها .

أما أسباب عدم نمو المدن أو تدهورها وتقلصها فإنها تكمن في غياب العناصر السابقة أو بعضها عن حياة المدينة . هذا وقد عقد ابن خلدون فصلاً خاصاً تحت عنوان (فصل في مباديء الخراب في الأمصار) حيث ركز على قلة السكان وقلة الأعمال والصنائع، ومن ثم قلة الانتاج كأسباب رئيسية لخراب المدن وتدهورها. ويشير ابن خلدون إلى سبب أخلاقي من أسباب تدهور المدن وخرابها، فهو يرى أن فساد الأخلاق وانتشار الرذائل مؤذن بخراب الأمصار. ويستشهد على ذلك ببعض النصوص من القرآن الكريم، استمع إليه يقول: «وإذا كثر (الفساد) في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها، وهو معنى قوله تعالى :

و﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾
(الاسراء : ١٦) .

ووجهه حينئذ أن مكاسبهم حينئذ لاتفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس

بها، فلا تستقيم أحوالهم. وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت» (المقدمة: ٨٩٠).

حياة المدينة:

هناك اختلاف كبير بين نوعية الحياة في المدينة ونوعيتها في الأرياف والبوادي. بل إن الحياة تختلف من مدينة إلى مدينة أخرى حسب الموقع، والمناخ، والكثافة، ودرجة التقدم، والانسجام الاجتماعي، وغير ذلك من العوامل ولقد ركز ابن خلدون في إيضاح جوانب الحياة في المدينة وطباع سكانها على مقارنة ذلك بحياة البادية، باعتبار أن الأشياء تتميز بضدها. لقد نظر ابن خلدون في أحوال الناس في عصره فرآهم مستقطبين حول فئتين لا ثالث لهما، هما: البدو والحضر. ثم قام بتحليل هاتين الفئتين فوجد أن صفات كل منهما مغايرة تماماً لصفات الأخرى، ووجد أيضا أن هناك تفاعلاً مستمراً بينهما، فاستنتج من ذلك أن المجتمع في جميع حوادثه هو نتاج هذا التضاد والتفاعل المستمر بين البدو والحضر (أنظر: الوردي: ١٩٦٢).

ومن أجل ذلك أتهم ابن خلدون بالتحيز للبدو ضد سكان المدن، فهذا الدكتور محمود الكردي يقول: «يبدو أن مسألة تأثر ابن خلدون بترحاله بين بعض المجتمعات، وباستقراره في أخرى هي التي طبعت معظم آرائه بطابع يتحيز من خلاله تماما للبدو ويهاجم فيه بشدة الحضر للدرجة التي فقد معها المنطق السليم اللازم لتحقيق الموضوعية» (الكردي، ١٩٨٤: ٢٣).

ومع علمنا بأن ابن خلدون بشر يجوز عليه الخطأ كما يجوز على غيره من البشر، فإننا نخالف الدكتور الكردي في هذه النقطة. فمقارنة ابن خلدون بين البدو والحضر مبنية على المنطق السليم وعلى الموضوعية، وهو ليس متحيزاً تماماً للبدو كما يقول الكاتب، وابن خلدون يعتبر حضريا في معظم حياته ويدل على ماذهبنا إليه ما استنتجه الدكتور عبدالباسط محمد حسن رحمه الله ـ حيث يقول: «وقد جعل ابن خلدون صفات البدوي مغايرة تماما لصفات الحضري. فإذا كان البدوي شجاعا لايهاب الموت، فالحضري جبان يؤثر الدعة، وإذا كان البدوي متوحشا فالحضري

مترف، وإذا كان البدوي طيب الخلق أقرب إلى الفطرة، فالحضري إنسان أفسدته الحضارة، وجعلته رخوا مخادعا كذابا. وإذا كان البدوي يدافع عن نفسه بحد سيفه، فالحضري وكل الدفاع عن نفسه إلى الدولة لدرجة انه يستأجر من يتولى هذه المهمة عنه. وذا كان الحضري يحب العلم والصنعة، فالبدوي يبغض العلم ويكره الصنعة. وإذا كان الحضري يحترم حقوق غيره ولايرضى عن السلب والنهب، فالبدوي لايؤمن إلا بغلبة السيف ويمجد السلب والنهب كمظهر من مظاهر القوة والغلبة والسلطان» (حسن ١٩٧٧ : ٢٧١) .

وصفة المغايرة والاختلاف بين حياة البدو والحضر سببها عند ابن خلدون اختلاف البيئـة، واختلاف التنشئة الاجتماعية وظروف الحياة المختلفة ولذلك فإن كل فريق يمتـاز بصفـات يمليهـا عليه واقعه وطبيعة حياته. فالبدو يمتازون بالصفات التي تحتاجها أو تمليها ظروف الحياة في الصحراء مثل الشجاعة والخشونة، وتولي الدفاع عن النفس وهذه الصفات جعلته لايقدرالعلم ولاالصنعة ولايحترم حقوق الآخرين، أما الحضري الذي يعيش في مدينة مسورة في الغالب، ولها حاميتها العسكرية، فإنه في الغالب يصبح مؤثراً للدعة والراحة لبعده عن جو القتال، وربما تفسد هذه الحياة النـاعمة فطرته فيلجأ إلى الخداع والكذب، ولكنه رغم ذلك يتصف بحب العلم والصنعة، وكره أخذ حقوق الآخرين، وهي صفات إيجابية تنفي تحيز ابن خلدون التام ضدهم، كم ذكر الدكتور الكردي .

وابن خلدون يتحدث عن مجتمع المدينة ومجتمع البدو عن خبرة ودراية وتجربة ويؤيد آراءه بالمنطق والأدلة الموضوعية، فأهل البدو عنده أقرب إلى الخير من أهل الحضر، ويعلل ذلك بأن «النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت مهيأة لقبول مايرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر، قال صلي الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». وبقدر ماسبق إليه من أحد الخلقين تبد عن الآخـر، ويصعب عليهـا اكتسابه: فصاحب الخير إذا سبقت إلي نفيه عوائد الخير وحصلت له ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقة وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضا عوائده» (المقدمة. ٤٧٤) .

ويذهب ابن خلدون إلى أن المدن تطبع سكانها بطابع خاص، وتؤثر في ثقافتهم ونشاطاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، كما أنها تتطور بسرعة من حيث الاتساع المكاني، وازدياد معدلات نمو السكان، ومظاهر العمران المختلفة، وهذا التطور من شأنه أن يحدث تطوراً مشابهاً في العلاقات والنظم الاجتماعية المميزة لسكان المدن. أما المناطق البدوية فهي تتطور في رأيه ببطء شديد وتتسم الظواهر الاجتماعية السائدة فيها بطابع الثبات والاستقرار النسبيين (انظر: الكردي. ١٩٨٤: ٣٣).

ويبدو أن ابن خلدون خبر أسرار سكان الحضر حتى إنه يصف لنا مجتمعات تشبه في خلالها وتحللها بعض المجتمعات المتقدمة اليوم، فهو يقول: «وأهل الحضر لكثرة مايعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والأقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ماحصل لهم من ذلك «كأن ابن خلدون هنا يضع فرضية علمية مؤدها أنه كلما ترقى الانسان في سلم التحضر والتقدم، كان أبعد عن خلال الخير والفطرة الصافية» حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم، فتجد الكثيرين منهم يُقْذِعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم، لايصدهم عنه وازع الحشمة، لما اخذتهم عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً» (المقدمة، : ٤٧٤).

ومفهوم التحضر عند ابن خلدون مرتبط بالترف والاقبال على الكماليات والتأنق في المباني، ويتضح هذا المفهوم في قوله: «والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تونق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيأة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل. . . وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لايستقيم حالها معها في دينها ولادنياها: أما دينها فالاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها، وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها. وبيانه إن المصر بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله» (المقدمة، : ٨٨٨-٨٨٩).

والجزء الأخير من كلام ابن خلدون في المقطع السابق يصدق وينطبق على كثير من مجتمعاتنا المعاصرة، وخاصة تلك التي مرت بما يسمى مرحلة الطفرة. فسكان المراكز الحضرية خاصة يعانون من مشكلة التفاخر والتعود على مستوى مغين من المعيشة وهو مايسميه ابن خلدون (العوائد) وبعد انحسار مستوى الدخل العام، عجز ذلك الدخل عن تغطية النفقات المتزايدة، فيلجأ الشخص إلى الطرق الملتوية والمحرمة لتغطية العجز. ولقد أشار ابن خلدون إلى تلك الطرق المتلوية والمحرمة لتغطية العجز. ولقد أشار ابن خلدون إلى تلك الطرق صراحة عندما قال: «فلذلك يكثر فيهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهة وغير وجهه . . . فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة «الخداع» والسرقة والفجور في الايمان والربا في البياعات . . . وتجدهم أيضا أبصر بالمكر والخديعة، يدفعون بذلك ماعساه ينالهم من القهر، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادةً وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله» (المقدمة، ٨٩٠، انظر كذلك: . (, and, Issawi, 1963 Mahdi, 1957 :214-215

ولعل الاستثناء الذي أورده ابن خلدون في نهاية الفقرة السابقة أكبر دليل على النزعة العلمية عنده والاحتياط لنفسه لوجود الاستثناءات التي تنقض الأحكام القاطعة وتُسقِط علميتها. وكلام ابن خلدون السابق يفسر الظواهر التي بدأت تنتشر في بعض المراكز الحضرية من سرقات وغش تجاري ومهني، يتمثل في خداع اصحاب ورش اصلاح الآلات، وأكلهم أموال الناس بالباطل، ولجوء طائفة من ميتي الضمير إلى الاتجار في المحرمات رغبة في الاثراء السريع مثل الاتجار في المخدرات والمسكرات، أو قطع الطرق وأخذ أموال الناس بالقوة والتهديد والإكراه .

ومن المعروف أن المدن تعج بفئات اجتماعية مختلفة، منها الصالح ومنها دون ذلك، كتلك الفئات الهامشية والساقطة، ولقد وصف ابن خلدون تلك الفئة خير وصف عندما قال: «ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الاخلاق الذميمة وتجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب، وغلب عليه خلق الجواري، وإن كانوا أهلَ أنساب وبيوتات. وذلك أن الناس بشر متماثلون، وإنما تفاضلو وتميزوا

بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل. فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل بأي وجه كان، فسد الخير فيه، لم ينفعه ذكاء نسبه ولاطيب منبته» (المقدمة: ٨٩٠) .

وحياة المدينة عموماً تعتبر عامل جذب للعمال وطالبي الوظائف لما فيها من فرص العمل وتوفر المتطلبات الضرورية والكمالية. وكلما كبر حجم المدينة كان الترف والخدمات وفرص العمل فيها أكثر، وفي هذا يقول ابن خلدون: «فالمصر إذا فضُل المصرَ بعمران واحد فضُلَه بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لاتوجد في الآخر، فمن كان عمرانه من الامصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه» (المقدمة. : ٨٧٢) .

ولقد صور ابن خلدون تفاوات الحياة من مدينة إلى أخرى وتأثير ذلك على الفئات المختلفة بمقارنة حال السائلين في فاس بحال السائلين في تلمسان ووهران، حيث يقول: «ولقد شاهدت بفاس السُّؤَّال يسألون أيام الأضاحى أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيراً من أحوال الترف و اقتراح المآكل، مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون، كالغربال والآنية. ولوسأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستُنكِر وعند ورُجِر» (المقدمة، : ٨٧٣) .

ويشير ابن خلدون إلى العلاقة الطردية بين الدخل والانفاق، فكلما زاد الدخل زاد الانفاق، وتلك الزيادة تذهب في الغالب إلى استهلاك السلع الكمالية وتؤدي زيادة الدخل إلى توسع المدينة وزيادة الأجور والعطاءات، فيكون ذلك بمثابة عامل جذب لتلك المدينة، فيفد إليها الناس من كل مكان، ولتوضيح ذلك ضرب ابن خلدون مثالاً بديعاً حيث يقول: «ومتى عظم الدخل عَظُمَ الخرج وبالعكس، ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر، وكل شيء يبلغك من هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران، وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيه، ومثله بشأن الحيوانات من العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف احوالها في هجرانها أوغشيانها. فإن بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وافنيتها بنثر الحبوب وسواقط الفتات، فيزدحم عليها غواشي النمل والخشاش ويحلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطاناً وتمتليء شبعاً

وريا. وبيوت أهل الخصاصة والفقراء الكاسدة أرزاقهم لايسري بساحتها دبيب، ولايحلق بجوها طائر ولاتأوي إلى زوايا بيوتهم فأرة ولا هرة» (المقدمة، : ٨٧٤-٨٧٥) .

ويقارن ابن خلدون بين الاسعار في المدن الصغيرة والمدن الكبيرة. «فإذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت اسعار الضروري من القوت وما في معناه وغلت أسعار الكمالي من الأدم والفواكه، وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس من ذلـك» (المقدمة، : ٨٧٥). أي إنه كلما صغرت المدينة وقل سكانها ودخلها، كانت أسعـار الضروريات أغـلى وأسعار الكماليات رخيصة، ويعلل ذلك في إطار قانـون العـرض والـطلب فالضروريات في المدن الكبرى عرضها زائد عن الحاجة فترخص أسعاره، أما الكماليات فقد توفرت الدواعى لطلبها «والاستكثار منها بحسب حاله»، فيقصر الموجود منها عن تلك الحاجات قصوراً بالغاً، ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم الأغراض، ويبذل أهل الترف والرفة اثمانها بإسراف في الغلاء لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء» (المقدمة. : ٨٧٦) .

ولابن خلدون ـ بالاضافة إلى ماسبق ـ نظرات ثاقبة في أسعار السلع فكلما زادت تكـاليف الانتـاج زادت تبعـا لذلك أسعار السلع، ويضرب لذلك امثلة بالانتاج الزراعي في بعض مناطق الاندلس بعدما دُفع المسلمون إليها مكرهين وكانت أرضا غير صالحة للزراعة فبذلوا فيها جهداً كبيراً، واستعملوا مواد ذات قيمة مثل الزبل، ولهذا كان سعر الانتاج غالياً، وهذا بعكس بعض بلاد البربر ذات الأرض الزاكية المنبت، السهلة الفلاحة، الكثيرة الانتاج، مما أدى إلى رخص الاسعار. أما غلاء وارتفـاع اسعـار الخـدمـات والصنائع في المدن فيقدم له ابن خلدون ثلاثة أسباب (المقدمة، ٨٧٦-٨٧٧) :

١ ـ كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه لارتفاع الطلب عليها .
٢ ـ اعتزاز أهل الأعمال بخدمتهم وعدم امتهان انفسهم لسهولة المعاش في المدينة، وكثرة أقواتها .
٣ ـ كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصناع في مهنهم،

فيبذلون في ذلك لأهل الاعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها، فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك . .

وهناك أمور كثيرة تدخل حياة الانسان ككماليات، وبعد أن يعتادها يجد صعوبة في الاستغناء عنها فتنقلب لدى الكثيرين إلى ضروريات، مثل السيارات والهواتف في حياتنا المعاصرة، ولقد أشار ابن خلدون إلى شيء من ذلك عندما تحدث عن عجز أهل البادية عن سكنى المدن الكبيرة، لأن «المصر الكثير العمران يكثر ترفه . . . وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف، وتُعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتنقلب ضرورات» (المقدمة، ٨٧٨) .

ويتحدث ابن خلدون عن موضوع من أهم الموضوعات التي تشغل سكان المدن، ذلك هو موضوع امتلاك العقار والضياع، فيرى أن ذلك لايتم دفعة واحدة وإنما بالتدرج: إما بالوراثة أو بجمع المال اللازم لذلك على مراحل وفي زمن قد يطول. ثم يشير ابن خلدون إلى أن العقار ترخص أسعاره في الأزمات وأثناء القلاقل والتحولات الجوهرية في حياة المجتمع، ثم بعد ذلك تبدأ اسعاره في الزيادة عندما تتغير الظروف والأحوال إلى الأحسن (انظر: المقدمة: ٨٨١-٨٨٢) .

وهكذا نرى إن ابن خلدون قد تناول كثيراً من جوانب الحياة في المدينة. وتأثير ذلك على أخلاق ساكنيها وطباعهم، كما تحدث عن حياة الترف التي يعيشها سكان المدن، وتفاوت المدن في ذلك مما يجعل بعض المدن أكثر جاذبية من غيرها فيؤمها الناس من كل مكان بحثاً عن العمل وحياة الرفه والراحة. كما تحدث ابن خلدون عن بعض الفئات الاجتماعية في المدينة، وعن الأسعار في المدن والعوامل التي تؤثر فيها، وكثير من أفكار ابن خلدون تنطبق على كثير من مدننا المعاصرة، ولعل صورة الحياة في المدينة لاتتضح وضوحاً كاملاً إلا إذا تحدثنا عن جوانبها الاقتصادية، والأعمال والحرف والصنائع التي تميز سكان المدن عن سكان الأرياف، ولقد تحدث ابن خلدون عن هذه الجوانب في مقدمته، ولذلك ستكون الصفحات التالية استعراضاً وتحليلاً للجوانب الاقتصادية والمهنية لحياة المدينة كما يراها ابن خلدون باعتبار ذلك جزءاً من حياة المدينة ومن أسباب انتشارها ونموها .

المدن : صنائعها وحرفها ومهنها :

من أهم أوجه الاختلاف بين الأرياف والمدن نوعية الأعمال والمهن التي يمارسها السكان، والتى يلطق عليها ابن خلدون مصطلح «الصنائع» وهذا الاختلاف بين المدن والأرياف أخذه كثير من الكتاب المعاصرين في الاعتبار عند تعريفهم للمدينة، مثل (فاجنر) الذي قال: بأن المدن هي مواضع تركز النشاط التجاري و(رتشتوفن) الذي عرف المدينة بأنها محل إقامة مجتمع لايعتمد في حياته على الزراعة، إنما يعتمد على التجارة و الصناعة و(جان برنز) الذي عرف المدينة بأنها المحلة التي يعمل أهلها معظم وقتهم داخلها (انظر: مفهوم المدينة بين الماضى والحاضر من هذا البحث) . .

والصناعة أو المهنة كما يفهما ابن خلدون هي «ملكة في أمر عملي فكري وبكونه عملياً هو جسماني محسوس. والأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل. لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة اتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرّة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة. ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر. . . وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته» (المقدمة: ٩٣٥). وكأن ابن خلدون يشير هنا إلى أن تعلم أي مهنة أو صنعة يحتاج إلى أشياء منها:

١ ـ الاستعداد الفطري، أو ما يسمى بالموهبة في وقتنا الحاضر، أو الملكة كما سماها ابن خلدون .

٢ ـ التمرين والتكرار والممارسة وبذل الجهد .

٣ ـ وجود المعلم، وكلما كان ذلك المعلم أكثر اتقاناً كان المتعلم أكثر حذقاً في تعلم المهنة أو الصنعة .

ثم يقوم ابن خلدون بتصنيف المهن والصنائع فيقول: «إن الصنائع منها البسيط ومنا المركب، والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركب هو الذي يكون للكماليات، والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً ولأنه يختص بالضروري

الذي ستتوفر الدواعي على نقله» (المقدمة: ٩٣٥). ثم يتحدث ابن خلدون عن أن المعرفة عملية تراكمية حيث يشير إلى أن «الفِكَر تخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعـل «من النظرية إلى التطبيق» بالاستنباط شيئاً شيئاً على التدرج حتى تكمل، ولايحصـل ذلك دفعة، إنما يحصل في أزمان وأجيال إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لايكون دفعة لاسيما في الأمور الصناعية» (المصدر السابق)..

ولاشك أن توفر السوق. من جهة، والأيدي العاملة، من جهة أخرى، يعتبران من أهم العوامل التي تساعد على انتعاش المهن والصنائع، حيث إن السوق الكبير يؤدي إلى توفير عامل الطلب. وتوفر الأيدي العاملة يؤدي إلى زيادة العرض وزيادة العرض وزيادة الطلب يؤديان إلى زيادة الإنتاج وإلى تطوره وتحسينه، ولذلك نجد أن «الـطوائف» وهي فئات الحرفيين في أوربا في العصور الوسطى، بدوا نشاطاتهم في الأرياف ثم انتقـوا إلى المـدن، واستقـروا فيهـا لوجـود السـوق وتـوفر الطلب على منتجاتهم، وكان النظام الطائفي من أهم الحلقات التي أدت إلى الثورة الصناعية التي بلغت قمتها في هذا القرن (انظر: مصطفى وحسن، ١٩٨٥).

وتـوفر السوق الكبير والأيدي العاملة يكون أكثر في المدن الكبيرة ولذلك تستقر الصنـاعـات والحـرف بها، وهـذا ما عناه ابن خلدون عندما قال: «ولهذا نجد أن الصنـائـع في الأمصـار الصغـيرة ناقصـة. ولايوجد منها إلا البسيط. فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع، خرجت من القوة إلى الفعل» (المقدمة: ٩٣٥-٩٣٦).

ويعقـد في مكـان آخـر فصـلاً خاصاً لمناقشة هذه القضية بعنوان «فصل في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته» ويعلل لذلك قائلاً «والسبب في ذلك أن الناس مالم تستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش، وهو تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها. فإذا تمدنت المدينة وتزايد فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الـزائـد حينئـذ إلى الكـمالات من المعـاش... وعـلى مقـدار عمـران البلد تكـون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجـادة مايطلب منهـا بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة. وأما العمران البدوي

أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا إلى البسيط، خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار، وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولامستجادة وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة، إذا هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها» . .

«وإذا زخر بحرالعمران وطلبت فيه الكمالات، كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزّار ودبّاغ وخرّاز وصائغ وأمثال ذلك، وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إن يوجد منها كثير من الكمالات، والتأنق فيها في الغاية، وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال، لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ. . .» (المقدمة: ٣٦-٩-٩٣٧) .

وكأن ابن خلدون في المقطع السابق يصف كثيراً من جوانب الحياة في وقتنا الحاضر وخاصة في المدن، فأكثر البلدان صناعة هي تلك البلدان التى تعيش الغالبية العظمى من سكانها في المدن مثل الولايات المتحدة (٧٤٪) وانجلترا وويلز (٧٨٪) واليابان (٧١٪) وبلجيكا (٨٧٪) واستراليا (٨٦٪) (انظر، Glst & Fava, 1974 :109) وسكان هذه الدول تجاوزوا ـ في الغالب ـ توفير الضروري إلى البحث عن توفير الكمالي، أما فائدة بعض الحرف فيشهد بها دخل كثير من السباكين والمكانيكيين والكهربائيين الذن يفوق دخل الكثيرين منهم دخل حملة الشهادات العليا من ماجسستير ودكتوراه، وما ذلك إلا لحاجة الجمهور الملحة لهذه المهن وعدم استغنائهم عنها حتى إن هذه الفئة تسببت في غلاء الأسعار في بعض البدان لمقدرتهم على الشراء أكثر من غيرهم لارتفاع دخلهم وكثرة المال في أيديهم .

ومما لاشك فيه أن من يريد أن يتعلم مهنة من المهن أو يحترف عملاً من الأعمال لابد أن يختار عملاً له مردود مادي وعليه إقبال من جمهور المستهلكين، ولهذا فإن الملتحقين بالجامعات في الفترة الأخيرة بدؤا يختارون التخصص التي يمكنهم بواسطتها أن يجدوا عملاً ودخلاً مادياً مقبولاً . ولقد عقد ابن خلدون فصلاً خاصاً لمعالجة هذا

الموضوع عنوانه (فصل في أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها) شارحاً ذلك بقوله «والسبب في ذلك ظاهر، وهو إن الانسان لايسمح بعمله أن يقع مجاناً لأنه كسبه ومنه معاشه، إذ لافائدة له في جميع عمره في شيء ما سواه، فلا يصرفه إلا فيما له قيمة له في مصره ليعود عليه بالنفع. وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها النفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي نفق سوقها وتجلب للبيع، فيجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم. وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تَنفُق سوقها، ولايوجد قصد إلى تعلمها، فاختصت بالترك وفقدت للإهمال، ولهذا يؤثر عن علي رضى الله عنه (قمية كل امريء مايحسن)، بمعنى أن صناعته هي قيمته، أي قيمة عمله الذي هو معاشه. وأيضاً فهنا سر آخر وهو: إن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة، فهي التي تُنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها، ومالم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها، لأن الدولة هي السوق الأعظم. وفيها نفاق كل شيء، والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة، فما نفق منها كان أكثرياً ضرورة، والسوقة وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام، ولاسوقهم بنافقة، والله سبحانه وتعالى قادر على مايشاء» (المقدمة: ٩٤٠).

ولعل ما أورده ابن خلدون في المقطع السابق هو حديث عن نظرية التبادل التي تنسب إلى ماكس فيبر والتى ملخصها أنَ الانسان لايقوم بعمل وهو في وعيه إلا لهدف معين، ويرجو من وراء عمله ذلك مردوداً ومنفعة معينة، وهو معنى قول ابن خلدون (إن الانسان لايسمح بعمله أن يقع مجاناً) وقوله (فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع). ويربط ابن خلدون بين الصناعات وبين الأمصار، لأن الأمصار توفر عامل الطلب على الكفاءات المدربة أكثر من الأرياف ولأن المدن سوق كبير للسلع وللمهن المختلفة. ولتوضيح قيمة المهن المرغوبة شبهها ابن خلدون بالسلع المرغوبة التي تجد إقبالا من المستهلكين، أما الحرف والصناعات غير المرغوبة فإن سوقها لاتنفق ولايوجد قصد إلى تعلمها وهذا يشبه كثيراً من الحرف والمهن التي زالت أو في طريقها إلى الزوال في وقتنا الحاضر، لقيام الآلة بها، مثل صناعة القرب وصناعة أدوات الزراعة التي تقوم على السواني وصناعة البارود وغير ذلك من الحرف اليدوية،

ومع اختلاف العصر بيننا وبين ابن خلدون فإن الدولة لازالت في كثير من بقاع العالم تلعب دوراً في تشجيع الصناعات وذلك بالمساعدة على إنشائها، أو باستهلاك منتجاتها والمساعدة على تسويقها، ولكن الذي اختلف هو أن معظم الصناعات اليوم ازدهر وعليه إقبال ليس من الدول ولكن من جمهور الناس، مثل صناعات النسيج والأدوات المنزلية والسيارات وغير ذلك من الصناعات الأخرى باستثناء الصناعات الحربية .

والصناعات والمهن إذا دخلت البلدان ووجدت اقبالا عليها، فإنها ما تلبث أن تستوطن في تلك البلدان وتمر بمراحل متلاحقة من التقدم والتحسن. فالصناعات في اليابان مثلاً بدأت بسيطة وناقصة ولكنها مع مرور الزمن وإقبال الشعب الياباني عليها أصبحت من أفضل الصناعات في العالم. ولقد عقد ابن خلدون فصلاً خاصاً في المقدمة لمناقشة هذا الموضوع بعنوان «فصل في أن رسوخ الصنائع في الأمصار برسوخ الحضارة وطول أمدها» ويوضح هذا العنوان بقوله «والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان. والعوائد إنها ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال. وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها. ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران، ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة. وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الأحوال وتكررها، وهذه لم تبلغ الغاية بعد . وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد: فإنّا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ماتدعو إليه عوائد أمصارها، كالمباني والطبخ . . . وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين. . . ونجد صنائعها مستحكمة لديهم. فهم على حصة موفرة من ذلك، وحظ متميز بين جميع الأمصار، وإن كان عمرانها قد تناقص» (المقمدة: ٩٣٨-٩٣٩) .

والصنائع والحرف تهاجر من بلد إلى آخر تبعا لهجرة الذين يجيدونها أو تردد أهل البلد الذي تنتقل إليه على البلد الذي استوطنت فيه تلك الصنائع، ذلك مثل

الابتعاث إلى الدول المتقدمة وتعلم اسرار الصناعات والمهن التى تفوقت فيها. وهذا ما أشار إليه ابن خلدون حين قال: «وكذا أيضا حال تونس فيما حصل فيها من الحضارة بالدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم، وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال، وإن كان ذلك دون الأندلس إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما، وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنة. وربما سكن أهلها هنالك عصوراً، فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعها ما يقع لديهم موقع الاستحسان. فصارت إحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الأندلس لما إن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة» (المقدمة: **٩٣٩**).

ثم يعرض ابن خلدون بعد ذلك لأهم الصنائع حيث يقول «أعلم أن الصنائع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة في العمران، فهي بحيث تشذ عن الحصر ولايأخذها العد. إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع فنخصها بالذكر، ونترك ماسواها. فأما الضروري فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة. وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب» (المقدمة **٩٤٥**)، ثم يستعرض ابن خلدون كل صناعة من هذه الصنائع على حدة مبيناً أهميتها وأماكن تواجدها من حيث الريف والحضر، وباستثناء صناعة الفلاحة فإن بن خلدون يعتبر الصنائع الأخرى صنائع حضرية تكثر وتنتشر في المدن والأمصار. وهذا استعراض لأهم الصنائع والحرف التي تنتشر في المدن:

صناعة البناء:

اعتبر ابن خلدون هذه المهنة «أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكِن والمأوى للأبدان في المدن» ويذكر ابن خلدون أن البشر مختلفون في هذه الجبلة الفكرية. ويبدو لي أن ابن خلدون كان يدرك أن الفن المعماري علم جليل قائم بذاته، ويدل على صواب نظرته إن العمارة أصبحت اليوم لها كلياتها وتخصصاتها المختلفة. واتخاذ المباني يعكس الحالة الاقتصادية والاجتماعية للأفراد «وكذا حال أهل المدينة الواحدة، فمنهم من يتخذ القصور

والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت الغرف الكبيرة لكثرة وُلْدِه وحشمه وعياله وتابعه، ويؤسس جدرانا بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالاصبغة والجص، ويبالغ في ذلك بالتنجيد والتنميق إظهاراً للبسطة بالعناية في شأن المأوى. ويهيء مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته، والاصطبلات لربط مُقْرَباته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معناهم. ومنهم من يبني الدويرة والبييت لنفسه وسكنه وولده لايبتغي ما وراء ذلك. لقصور حاله عنه واقتصاره على الكُن الطبيعي للبشر. وبين ذلك مراتب غير منحصرة» (المقدمة: ٩٤٥).

ويعتبر المسكن اليوم من أهم المؤشرات الدالة على المكانة الاجتماعية والاقتصادية، فبعض الناس يبالغ فيه لمقدرته المالية ولكي يبرز مكانته الاجتماعية حتى إن البناء في بعض الاحيان يزيد عن احتياج الأسرة وحجمها وفي المقابل هناك اناس ذوو أسر كبيرة يعيشون في مساكن ضيقة لعدم مقدرتهم المالية على أكثر من ذلك.. وتوفير المأوى يعتبر من الاحتياجات الاساسية (Basic Needs) التي ينادي كثير من الكتاب المعاصرين بتوفيرها لجميع أفراد المجتمع، وهذا ماأشار إليه ابن خلدون في المقطع السابق.

ولقد تطور الفن المعماري في المدن والقرى السعودية في العقدين الاخيرين لارتفاع المستوى التعليمي، وارتفاع مايمكن تسميته بالوعي المعماري وذلك لارتفاع مستوى المعيشة والوضع الاقتصادي عموماً وارتقاء الذوق الاجتماعي تبعاً لذلك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد أن الذين يشتغلون بالتخطيط أو التنفيذ المعماري قد اكتسبوا خبرة مع السنين بتكرار ممارسة العمل، ولقد أشار ابن خلدون إلى شيء من ذلك عندما ذكر أن القائمين على هذه الصناعة متفاوتون «فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر... وتختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر، ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون» (المقدمة: ٩٤٦-٩٤٧).

وقضية المزاحمة والمنافسة على العقار والمسلك قضية قديمة تحدث عنها ابن خلدون عندما قال: «وربما يرجع الحكام إلى نظر «البنائين» فيما هم أبصر به من أحوال البناء،

وذلك أن الناس في المدن يتشاحون حتى في الفضاء والهواء للأعلى والأسفل. ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك، إلا ماكـان له فيه حق، ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ للمياة الجارية والفضلات المسربة في القنوات. وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطة أوقنانه لتضايق الجوار، أويدعي بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه، ويحتاج إلى قسمة دار أو عرصة «ساحة الدار» بين شريكين، حيث لايقع معها فساد في الدار ولاأهمال لمنفعتها، وأمثال ذلك ويخفي جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحـواله، المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها، وتسريب المياة في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لاتضر بها مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك، فلهم بهذا كله البصر والخـبرة التي ليست لغـيرهم. وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الأجيال باعتبار الدولة وقوتها» (المقدمة: ٩٤٧-٩٤٨). ورغم اختلاف العصر وطرائق المعيشة فإن كلام ابن خلدون ينـطبق على الكثـير من المشكـلات المتعلقـة بالبناء في وقتنا الحاضر، مما يدعو إلى الاستعانة بأهل الخبرة وأهل الاختصاص في حلها مثل مهندسي البلديات ومقاولي البناء. وأوجه الاختلاف تدخل تحت الاحتراز العلمي الذي ذكره ابن خلدون من أن الأجيال تختلف في الجودة والقصور باعتبار الدولة وقوتها.

واخيراً يتحدث ابن خلدون عن بعض المهارات التي يجب أن يمتلكها من يعمل في مهنة البناء، فهو يقول «وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن واجراء المياة بأخذ الارتفاع، وأمثال ذلك، فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله. وكذلك في جر الاثقال بالهندام «الآلات والأدوات» فإن الاجرام العـظيمـة إذا شُيدت بالحجارة الكبيرة تعجز قُدَر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط، فيتحيّل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق من اثقاب مقدرة على نسب هندسية معروفة متداولة بين البشر. وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحسب النـاس إنها من بناء الجاهلية وأن أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسـاني وليس كذلك، وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه» (المقدمة:

٩٤٩). ومعرفة مبادىء الهندسية لاتزال من أهم المهارات التي يجب أن يعلمها من يشتغل في صناعة البناء. أما الاستعانة بالآلات والأدوات مثل الرافعات وهو ما اسماه ابن خلدون «الهندام» فإن العصر الذي نعيش فيه ربما فاق جميع العصور، حيث بُنيت مبانٍ بلغت ارتفاعات لم تبلغها من قبل، مثل ناطحات السحاب، وابن خلدون يبين هنا السبب الحقيقي في بناء بعض الهياكل مثل الاهرامات حيث يرجعه إلى الاستعانة بالآلات والأدوات وليس إلى كِبَر الأجسام كما كان يظن العاملة، ولقد أثبت الكشف عن الأجسام المحنطة للفراعنة صحة استقراء ابن خلدون، فهم لم يكونوا عمالقة كما كان يظن البعض بل كانوا متوسطي الأجسام.

صناعة النجارة :

يعتبر ابن خلدون هذه الصناعة من ضروريات العمران، وهي مختصة بتشكيل الخشب حسب الغرض المراد منه. وللأخشاب في نظره فوائد كثيرة منها أنه يُتخذ وقوداً للنيران. وعصياً للاتكاء والذود وغيرهما من الضروريات، ودعائم لما يُخشى ميله من الاثقال. فأما أهل البدو فيتخذون منه العُمُد والاوتاد لخيامهم، والحُدوج لظعائنهم، والرماح والقسي والسهام لسلاحهم، وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والاغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم ويستخدمونه في انشاء المراكب البحرية والقوارب الصغيرة. وكل واحدة من هذه فالخشب مادة لها، ولاتصير إلى الصورة المرادة لها إلا بصناعة النجارة. «والقائم على هذه الصناعة هو النجار. وهو ضروري في العمران. ثم إذا عظمت الحضارة. وجاء الترف. وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون، حدث التأنق في صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضروري في شيء، مثل التخطيط في الأبواب والكراسي، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخراط يُحكم بريها وتشكيلها. ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدساتر «المسامير» فتبدو لرأي العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب. يُصنع هذا في كل شيء يُتخذ من الخشب فيجيء آنَقَ مايكون، وكذلك في جميع مايُحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان» (المقدمة: ٩٥٠).

ثم يتحدث ابن خلدون عن المهارات التي يجب أن تتوفر فيمن يحترف هذه المهنة، وإذا كانت صناعة البناء محتاجة إلى معرفة قواعد الهندسة فإن صناعة النجارة احوج إلى معرفة تلك القواعد وفي هذا يقول ابن خلدون «وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع صنوفها. لأن إخراج الصورة من القوة إلى الفعل «من النظرية إلى التطبيق» على وجه الأحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير. إما عموماً أو خصوصاً. وتناسب المقادير لابد فيه من الرجوع إلى المهندس. ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة، فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجاراً وبها كان يُعرف، وكذلك ابلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم. وفيما يقال: أن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام، وبها انشأ سفينة النجاة التي كان بها معجزته عند الطوفان» (المقدمة: ٩٥٠-٩٥١).

وبهذا يتضح لنا أن النجارة وكثير من المهن الأخرى تعتبر مهناً جليلة ورفيعة عمل بها انبياء وفلاسفة، وإن احتقار المهن في بعض المجتمعات لايستند على حجة أو برهان. وإنما على عادات ماأنزل الله بها من سلطان. ولاتزال النجارة تعلب دوراً أساسياً في حياتنا المعاصرة رغم إحلال بعض المواد محل الخشب في كثير من الأعمال مثل الصبات المسلحة في البناء والاسقف، والحديد في الأسلحة وصناعة السفن، إلا أن الخشب لايزال يلعب دوراً اساسياً في صناعة الأثاث المنزلي من غرف النوم والدواليب والمكاتب والكراسي والأبواب وغير ذلك، ولاتزال مجتمعاتنا تنفق اموالا طائلة على استيراد هذه السلع من كثير من الدول في الشرق والغرب، فلولا نفر منا طائفة يعملون في هذه المهنة ويجيدونها لكان خيراً لهم ولمجتمعاتهم.

صناعة الحياكة والخياطة:

وهاتان الصناعتان عند ابن خلدون ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفة، فالحياكة لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن، والخياطة لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد، تفصل أولاً بالمقص قطعاً مناسبة

للأعضاء البدنية، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تنبيتاً على حسب نوع الصناعة، ويرى ابن خلدون أن الخياطة مختصة بالعمران الحضري، لما أن البدو مستغنون عنها، حيث يشتملون الأثواب اشتمالاً، أما تفصيل الثياب عنده وتقديرها وإلحامها بالخياطة فإنه من مذاهب الحضارة وفنونها، ويؤيد رأيه بتحريم المخيط في الحج لما أن مشروعيته مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالي كما خلقنا أول مرة، حتى لايعلق العبد بشيء من عوائد ترفه، لا طيباً ولانساء ولا مخيطاً (انظر. المقدمة: ٩٥١-٩٥٢).

وربما كان لبس المخيط غير معروف عند بعض القبائل البدوية في عصر ابن خلدون مثل الطوارق في شمال افريقية، ولكن من المستبعد أن تكون جميع القبائل البدوية كذلك، واستشهاد ابن خلدون بنبذ المخيط في الحج على أنه من مذاهب الحضارة وفنونها غير مقبول، لأن الحاج مطالب بنبذ غيرها مما هو متبع في الحضر والبادية مثل ملامسة النساء واستخدام الطيب والصيد، هذا الأخير اعني الصيد أكثر انتشاراً في البادية منه في الحواضر. ويرى ابن خلدون أن صناعتي النسيج والخياطة من أقدم الصناعات لحاجة الانسان إلى الدفء «ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى ادريس عليه السلام، وهو أقدم الأنبياء. وربما ينسبونها إلى هرمس، وقد يقال ان هرمس هو ادريس» (المقدمة: ٩٥٢).

ومما لاشك فيه أن صناعة النسيج تعتبر من أهم الصناعات في حياتنا المعاصرة، فهي الصناعة التي بدأ بها استخدام الآلة ثم انتقل إلى غيرها من الصناعات في بريطانيا (انظر: مصطفى وحسن، ١٩٨٥). ولاتزال صناعة النسيج إلى اليوم من أهم الصناعات البريطانية، والشعوب الاسلامية لازالت تنفق على استيراد المنسوجات بأنواعها المختلفة أموالاً طائلة، إن صناعة المنسوجات من الصناعات الاساسية التي تتعلق باشباع الاحتياجات الاساسية للانسان، ومن واجبنا أن نوليها بعض العناية ونتنبة إلى أهميتها كما تنبه ابن خلدون رحمه الله.

صناعة الطـــب :

كانت الصحة ولاتزال وستظل من أهم مؤشرات تقدم المجتمع وارتفاع وعيه وتطور مستواه المعيشي، والخدمات الصحية ضرورية لجميع الناس، وخاصة سكان المدن لسهولة انتقال الأمراض بسبب الكثافة السكانية العالية، وتراكم النفايات وانتشار الابخرة والغازات المختلفة، ولقد تنبه ابن خلدون إلى أهمية الخدمات الصحية في المدن ممثلة في صناعة الطب عندما قال: «هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدتها، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء «الطب الوقائي» ودفع المرض عن المـرضى بالمداواة «الطب العلاجي» حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم. . . ووقـوع هذه الامـراض من أهـل الحضر والأمصـار أكثر، لخصب عيشهم، وكثرة مآكلهم، وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الاغذية، وعدم توقيتهم لتناولها . . . ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الابخرة العفنة من كثرة الفضلات. والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الأثر الحار الغريزي في الهضم. ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم في الغالب وادعون ساكنون لاتأخذ منهم الرياضة شيئاً، ولاتُؤثر فيهم أثـراً، فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والأمصار، وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة» (المقدمة: ٩٥٧ـ٩٦٠) .

وبناء على كلام ابن خلدون فإن الأمراض تنتشر في المدن للأسباب التالية :

١ ـ الأفراط في المآكل المختلفة .

٢ ـ عدم التوقيت في تناول الطعام واتباع جدول زمني معين .

٣ ـ تنويع الأغذاية وعدم الاقتصار على نوع واحد منها .

٤ ـ فساد الهواء بمخالطة الابخرة العفنة من كثرة الفضلات .

٥ ـ عدم ممارسة الرياضة .

وبـاستثنـاء العـامـل الثـالث فإن جميع العوامل لازالت من أهم عوامل انتشار الأمراض في سكان المدن اليوم، بل ربما كان خطرها اليوم أكثر من خطرها أيام ابن خلدون لكثرة المآكل وتناولها بدون توقيت وفساد الهواء لزيادة استخدام الآلات وقلة الجهد البدني لاعتماد الناس على الآلة في مواصلاتهم وقضاء حوائجهم، أما اعتبار

تنـوع الأغذية من اسباب الأمراض فإن العلم الحديث يثبت عكس ذلك. فتنوع الغذاء يُعتبر امراً صحياً مرغوباً فيه .

ويذكر ابن خلدون إلى جانب صناعة الطب صناعة اخرى تتعلق بالصحة تلكم هي صناعة التوليد وهي الصناعة التي تعني بالطفل في لحظاته الأولى وإخراجه من بطن امه برفق والعمل على مايصلحه بعد الخروج، ويرى ابن خلدون إنها مختصة بالنساء في غالب الأمر (انظر: المقدمة: ٩٥٢ وما بعدها). وتعتبر العناية بالطفولة والأمومة من المؤشرات المتبعة لقياس تقدم الأمم والشعوب .

صناعة الخط والكتابة والتعليم :

الخط والكتابة من الصناعات الشريفة إذ الكتابة من خصائص الانسان التي تميز بها عن الحيوان، وكـانت في المـاضى أهم وسائل الاتصال من بلد إلى بلد بواسطة الرسائل والمكاتبات ومعرفتها تمكن من الاطلاع على العلوم والمعارف، وصناعة الخط والكتابة تكثر في المدن «وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة إذ هو من جملة الصنائع. وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران. ولهذا نجد أكثر البدو أميين لايكتبون ولايقرؤن. ومن قرأ منهم أو كتب فيكون الخط قاصراً وقراءته غير نافذة. ونجد تعليم الخط في الامصار التي الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقاً، لاستحكام الصنعة فيها. كما يُحكى لنا عن مصر لهذا العهد. وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف، ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه، فتعتضد لديه رتبة العلم والحسن في التعليم، وتأتي ملكته على أتم الوجوه. وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال» (المقدمة: ٩٦١) .

ولقـد اضـطلعت المدارس اليوم بتعليم هذه الصناعة، حيث إن معرفة الكتابة مرتبـطة بمعـرفة القراءة. والخط الجميل المقروء أصبح مطلبا من مطالب التعليم، ولكن المـلاحظ أن خطوط الأجيال الأخـيرة اسـوأ بكثـير من خطوط الأجيال التي سبقتها، مما يحتم إعادة النظر في مسألة تقرير مادة الخط في المدارس ومطالبة التلاميذ

بنسـخ النصـوص لتحسين خطوطهم، وإذا كان تعلم الخط والكتابة في عصر ابن خلدون مقصوراً على سكان المدن، فإن هذا لم يعد مقبولاً اليوم، حيث يجب على جميع الفئات سواء سكان المدن أو الأرياف أو البادية الانخراط في سلك التعليم لأن نهضة الشعوب وتقدمها يعتمدان اعتماداً اساسياً على التعليم بفروعه المختلفة .

وهناك صنعة أخرى جعلها ابن خلدون تابعة للخط والكتابة تلكم هي صناعة الـوراقة حيث يقول في ذلك: «وأما الكتابة ومايتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان. ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعاني» (المقدمة : ٩٤٣) .

وكانت سوق الوراقين نافقة في فترة ازدهار الحضارة الاسلامية وانتشارها ثم اعتراها بعض الانحسار وفي هذا يقول ابن خلدون: «وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة. وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الاسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس. إذ هو كله من توابع العمـران واتسـاع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديها. فكثرت التآليف العلمية والـدواوين، وحرص الناس على تناقلها في الأفاق والأعصار فانتسخت وجلدت، وجاءت صناعة الوراقين والمعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران» (المقدمة: ٩٧٣-٩٧٤) .

وصنـاعـة الوراقة في عصر ابن خلدون تشبه صناعة النشر في عصرنا الحاضر، فالمطابع الآلية تقوم مقام الكتبة، ودور النشر تقوم بتوزيعها على المكتبات ومن ثم تجد طريقها إلى المستهلك، وإذا كان الوراقون قديماً يتركزون في المدن، فإن الشيء نفسه يمكن أن يقال عن دور النشر اليوم .

والعلوم وأصنافها والتعليم وطرقه أمور ارتبطت بحياة المدينة في الغالب، ولذلك أفرد لها ابن خلدون باباً كاملاً في المقدمة هو الباب السادس، ويضم هذا الباب واحداً وستـين فصـلاً كلهـا عن العلوم والمعارف المختلفة من علوم دينية ودنيوية، نظرية وتطبيقية، ويعتبر أن ابن خلدون أن التعليم للعلم من جملة الصنائع مثله مثل البناء

والنسيج والاعتماد عنده في تعلم كل علم أو صنعة على مشاهير المعلمين. ومن المعروف أن الصنائع تنحسر عن الأمصار التي يتناقص عمرانها «وإذا تقرر ذلك فاعلم إن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه، ومايحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والاندلس، واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع اسواق نافقة وبحور زاخرة، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة» (المقدمة: ١٠٢٠).

وابن خلدون يربط بين درجة التحضر وبين رسوخ العلم وانتشاره ويقارن بين المشرق العربي والمغرب العربي في عصره ويقول أن المشرق لم ينقطع سند التعليم فيه لوفرة العمران واتصاله. وإذا كنا اليوم نعاني مما يسمى «عقدة الخواجة» ويظن البعض أن الانسان الغربي أكثر ذكاء ومعرفة وعلماً، فقد عانى المغرب العربي في عصر ابن خلدون مما يمكن تسميته «عقدة الشرق» وفي هذا يقول ابن خلون: «فأهل المشرق على الجملة ارسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع، حتى ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة اكمل من عقول أهل المغرب، وأنهم أشد نباهة وأعظم كَيْساً بفطرتهم الأولى، وأن نفوسهم الناطقة أكمل لفطرتها من نفوس أهل المغرب، ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك، ويولوعن به لما يرون كَيْسَهم في العلوم والصنائع» (المقدمة: ١٠٢٢).

ويرى ابن خلدون أن الشرقيين لايتفوقون على المغاربة إلى ذلك الحد الذي كان يعتقده البعض، ويرد ذلك إلى التربية والتعليم والتنشئة الاجتماعية وفي هذا يقول «وإنما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو مايحصل في النفوس من آثار الحضارة من العقل المزيد ماتقدم في الصنائع... وذلك أن الحضر لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا، وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعملاتهم. وجميع تصرفاتهم. فلهم في ذلك آداب يوقف عندها في جميع مايتناولونه ويتلبسون به من أخذٍ وترك حتى كأنها حدود لاتُتعدى. وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم» (المقدمة: ١٠٢٣).

وتلقى الآخر عن الأول يسمى في علم الاجتماع الحديث «بالتنشئة الاجتماعية» وهي نقل العادات والتقاليد والأعراف والعلوم والمعارف واللغة وغيرها من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق. , وهذه الصفة التي يتميز بها الغربيون عنا حيث بلغوا في التنظيم والمعارف شأواً بعيداً وأصبح ذلك ينتقل من جيل إلى آخر عن طريق التنشئة الاجتماعية. حتى أن البعض ينظر باعجاب شديد إلى ما يقوم به الغربيون من تدريب للحيوانات وتعليمها القيام ببعض الأدوار. والحقيقة أن البلاد الاسلامية قد برعت في هذا الفن وهذا ما أشار إليه ابن خلدون عندما قال: «ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لاتدرك مثل أنهم يعلمون الحُمُر الانسية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والأفعال يُستغرب ندورها، ويعجز أهل المغرب عن فهمها» (المقدمة: ١٠٢٣).

وهذا الاختلاف بين الاقطار وبين الفئات الاجتماعية يرجعه ابن خلدون إلى تعلم الصنائع والمهارات المختلفة، وإلا فإن الناس متقاربون في الذكاء الفطري في الغالب. وسكان المدن أكثر امتلاكاً للمهارات والآداب والمعارف المختلفة «حتى إن البدوي ليظنه أنه قد فاقة في حقيقة إنسانيته وعقله، وليس كذلك. وما ذلك إلا لاجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية مالايعرفه البدوي. فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها، ظن من قصر عن تلك الملكات إنها في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته، وليس كذلك. فإنا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة في الفهم والكمال في عقله وفطرته. إنما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم، فإن لها آثاراً ترجع إلى النفس كما قدمناه. وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع ارسخ رتبة واعلى قدماً، وكان أهل المغرب أقرب إلى البداوة... ظن المغفلون في باديء الرأى إنه لكمال في حقيقة الانسانية اختصوا به عن أهل المغرب، وليس ذلك صحيح فتفهمه» (المقدمة: ١٠٢٣-١٠٢٤).

ويفرد ابن خلدون فصلاً خاصاً للعلاقة بين العلم والمدن عنوانه (فصل في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة) شارحاً ذلك بقوله: «والسبب

في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع، وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ماوراء المعاش من التصرف في خاصية الانسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه. ولابد له من الرحلة في طلبه إلى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة. لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها رجاب العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى اربو على المتقدمين وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص عمرانها وابذَعَرْ سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم وانتقل إلى غيرها من أمصار الاسلام. ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليم العلم. وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا» (المقدمة: ١٠٢٤-١٠٢٥).

ولو أردنا أن نطبق كلام ابن خلدون حول العلاقة بين انتشار العلم ومعاهده ومؤسساته من جهة وانتشار المدينة وتوسعها واستبحارها من جهة أخرى على مدن اليوم لوجدنا أنه ينطبق على جميع المدن، فلايوجد مدينة تنتشر وتتوسع دون أن يصاحب ذلك انتشار وتوسع في مرافقها ومؤسساتها التعليمية، وأنما يكون الاختلاف في الدرجة بين مدينة وأخرى حسب الامكانات والظروف المختلفة، ولو أخذنا مدينة الرياض على سبيل المثال لوجدنا أنها عندما فتحها الملك عبد العزيز رحمه الله كانت قرية كبيرة لاتتجاوز مساحتها مساحة المدينة الجامعية لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ولم يكن بها مؤسسات تعليمية، أو مكتبات فضلاً عن المطابع ودور النشر، واليوم تعتبر

الرياض في مقدمة المدن العربية من الناحية التعليمية والعلمية، وما ذلك إلا لتوسعها وهجرة الناس إليها من كل مكان، حيث يوجد في الرياض جامعتان هما جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية وجامعة الملك سعود وعدد من المراكز التعليمية مثل معهد الإدارة العامة، والمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، ومدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. إلى غير ذلك من المراكز والمعاهد والكليات العسكرية والمدنية .

خاتمــــــة

كشف هذا البحث جانباً من جوانب تفكير ابن خلدون حيث تعرض لتعريف المـدينـة، وأسبـاب نشأتها، وتطورها ونموها أو تقلصها وانكماشها وأسباب ذلك. وتحدث كذلك عن حياة المدينة وتأثيرها في سلوك ساكنيها، ثم تعرض للمهن والحرف التي اشتهر بها سكان المدن مقارنة بسكان القرى والبوادي، وهذه المواضيع كلها التي تحدث عنها ابن خلدون تثبت عمق تفكيرة، وبعد نظراته وشمولها رغم قِدَم عصره ومحـدودية امكاناته في جميع المجالات مقارنة بامكانات اليوم، فكثير من أفكار ابن خلدون ونظرياته ترقى إلى مستوى أفكار ونظريات كثير من العلماء المعاصرين، وربما فاقهم في بعضها. ولو لم يكن لابن خلدون من الفضل إلا كونه المؤسس الأول لعلم الاجتماع لكفاه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المدينة في عصر ابن خلدون كانت في الغالب صغيرة الحجم، يحيطها سور لحمايتها ضد الغارات والحروب. ولم تكن المدن آنذاك مثل مدن اليوم صاخبة ومزدحمة وكثيرة الحركة، لأن العنصر المحرك للحياة المعاصرة هو الآلة، أما في عصر ابن خلدون فقد كان النشاط في الغالب الأعم يدور حول الأرض وما تنتجه من زراعة تعتمد بشكل رئيسى على مجهود الانسان والحيوان وقدرتهما، ولذلك فإن ماقدمه ابن خلدون عن المدينة في عصرة يعتبر شيئاً مهماً للمشتغلين بعلم الاجتماع عموماً، وعلم الاجتماع الحضري خاصة لأنه يقدم إطاراً للمقارنة بين مدينة الأمس ومدينة اليوم.

يضاف إلى ذلك أن ابن خلدون يقدم كثيراً من الأفكار الحيوية والمهمة، والتي لم تفقد أهميتها مع مرور الزمن، بل تأتي الأحداث والمعلومات والتجارب لتؤكد صحتها وأهميتها، وذلك مثل نظريته عن أسباب نشأة المدن والتي لايزال العلماء المتأخرون يدورون في فلكهـا مثـل «جـوردن تشـايلد» ومثل اتباع نظرية الضغط في الكثافة

السكانية، ومن أفكار ابن خلدون التي لاتزال حية ومهمة أفكاره عن موقع المدينة التي يمكن أن يستفاد منها عند اختطاط مدن جديدة، وخاصة المدن العسكرية والصناعية، حيث يجب أن يراعي في الجميع جلب المنافع ودفع المضار. ومثل ذلك أفكاره عن البيئة وسلامتها ونقائها، فالانسان أحوج ما يكون في هذا العصر إلى بيئة سليمة وهواء ومياة نقية. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المراجـــع

القرآن الكريم .

ابن خلدون : عبد الرحمن، ؟؟
(المقدمة)، تحقيـق وتقديـم الدكتور على عبدالواحد وافي . دار نهضـة مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة .

ابن منظـور : جمال الدين محمد بن مكرم . ؟؟
(لسان العرب)، دار صادر، بيروت، لبنان .

الأشعـــب : خالص، ١٩٧٩م .
(ابن خلدون : ريادة عربيـة أصيلة في التخطيط المديني والأقليمي) . مجلة كلية الأداب، جامعة بغداد، العدد: **٢٦**، ص ص: **٣١٥-٣٥٢** .

باتسييفا : سفيتلانا، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م .
(العمران البشري في مقدّمة ابن خلدون)، ترجمة عن الروسية : رضوان إبراهيم، الدار العربية للكتاب . ليبيا - تونس .

حســـن : عبد الباسط محمد، ١٩٧٧م .
(علم الاجتماع)، الكتاب الأول: المدخل، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة .

الحسيـــني : السّيّد، ١٩٨٠م .
(المدينة : دراسـة في علم الاجتماع الحضري) . مطابع سجل العرب . القاهرة.

الخريجـــي : عبد الله، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م .
(علم الاجتماع الاقتصادي) دار الشروق، جـدة .

الخشـــاب : مصطفى، ١٩٨٢م .

(الاجتماع الحضري)، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية.

رعـــد : **سعيد محمد، ١٩٨٥م .**
(العمران في مقدمة ابن خلدون)، طلاس للدراسات والترجمة والنشر،

الساعاتـــي : **حســن ، ١٩٧٥م .**
(علم الاجماع الخلدوني : قواعد المنهج)، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.

السيـــد : **عبد العاطـي السيّـد، ١٩٨٠م .**
(الايكولوجيا الاجتماعيـة : مدخل لدراسة الانسان والبيئة والمجتمـع) دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية .

الشرنوبي : **محمد عبد الرحمن، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م .**
(الانسان والبيئة)، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة .

صـــادق : **دولت أحمد ومحمد السيد غلاب، ١٩٨٣م .**
(جغرافية السكن)، دار البيان العربي، جدّة .

عثمـــان : **محمد عبد الستّار، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م .**
(المدينة الاسلامية)، ١٢٨ من سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنـي للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

غـــلاب : **محمد السيد ويسري عبد الرزاق الجوهري، ١٩٧٢م .**
(جغرافية الحضر)، دار الكتب الجامعية .

غنيـــم : **محمد أحمد، ١٩٨٧م .**
(المدينـة : دراسة في الانثروبولوجيا الحضريـة). دار المعرفـة الجامعية الاسكندرية .

قـربـان : **ملحـم، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤ .**
(خلدونيّات : السياسة العمرانية، دراسات منهجية ناقدة في الاجتماع السياسي). المؤسسة الجامعيـة للدراسات والنشـر والتوزيع، بيروت.
(خلدونيات : قوانين خلدونية، دراسات منهجية ناقـدة في الاجتمـاع السياسي)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

القزويني : زكريا بن محمد بن محمود، ؟؟
(آثار البلاد وأخبار العباد)، دار صادر، بيروت. لبنان.

كـــارادوفو : البارون. ١٩٧٩م.
(مفكرو الإسلام)، ترجمة: عادل زعيتر، الدار المتحدة للنشر، بيروت، لبنان.

الكـــردي : محمود، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
(التحضّر: دراسة اجتماعية). الكتاب الأول: القضايا والمناهج، دار قطري بن الفجاءة، قطـر.

كوستللـــو : ف. ف.، ؟؟
(علم الاجتماع الحضري: التمدن في الشرق الأوسط)، ترجمة د. أبوبكر باقادر، صياغة د. هانيء يحيى نصري، دار القلم. بيروت، لبنان.

ليبس : يوليوس، ١٩٨٨م.
(بدايات الثقافة الانسانية «في أصل الأشياء»)، ترجمة كامل اسماعيل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.

مصطفـــي : أحمد فريد وسهير محمد السيّد حسن، ١٩٨٥م.
(تطـور الفكـر والوقائـع الاقتصاديـة)، مؤسســة شبــاب الجامعة. الاسكندرية.

مغربـــي : عبد الغني، ١٩٨٦م.
(الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

المقدســي : محمـد بن أحمـد، ١٩٠٩م.
(أحسن التقاسيم في معرفـة الأقاليـم). مطبعـة بريل. مدينـة ليدن. الطبعة الثانية.

ممفـــورد : لويس، ١٩٦٤م.
(المدينة على مر العصـور: اصلهـا وتطورهـا ومستقبلها). أشرف على ترجمته د. ابراهيم نصحي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

الموســوي : مصطفى ١٩٨٢م.

(العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية)، دار الرشيد للنشر، بغداد .

نجـــــم : حسين طه وعلـي علي النبا وعبد الاله أبو عيـاش، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م ١٩٨٤م

(البيئة والانسان: دراسات في الايكولوجيا البشرية)، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثانية .

وافـــــي : على عبد الواحد، ١٩٦٢م ؟؟

(عبد الرحمن بن خلدون)، الكتـاب رقم ٤ في سلسـة اعلام العرب . وزارة الثقافة والارشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة .

الـــوردي : علـي، ١٩٦٢م

(منطق ابن خلدون)، معهد الدراسات العربية، القاهرة .

المراجـــع الأجنبيـــة

Bergel, E., 1955

"*Urban Sociology*", New York: Megraw Hill Book Co.

Boskoff, A., 1970.

"*The Sociology of Urban Regions*", New York: Meredith Corporation, Second Edition.

Childe, G., 1951

"Man Makes Himself", New York: The New American Library.

Duncan, O. D., 1964

"Social Organiwation and Ecosystem", in: Robert E. L. Faris (ed.), *"Hanadbook of Modern Sociology"*, Chicago: Rand McNally, PP. 36-82.

Fogel, K. W., 1972

"The Hydrolic Approach of pretory of Tehuacan Vally", Chronology and Lrrigation, Vol. 4, Ed. Mac Neish, University of Texas, Austin.

Gist, N. & S. F. Fava, 1974.

"The Hydrolic Approach of Tehuacan Vally", Chronology and lrrigation, Vol. 4, Ed. Mac Neish, University of Texas.

Gist, N. & S. F. Fava, 1974

"Urban Society", New York: Thomas Y. Crowell Co. Fifth Edition.

Grass, N. S., 1922

"An Arab Philosophy of History: Selection From the Muqaddimah", London: John Murray.

Johnson, D. p., 1981

"Sociological theory: Classial Founders and Contemporary

perspectives" ,New York: John Wiley & Sons.

Jones, E., 1966

"Towns and Cities", Oxford University press.

Mahdi, M., 1957

"Ibn Khaldun's Philosophy of History : A Study in the philosophic Foundation of the Science of Culture", London: George Allen and Unwin Ltd.